

على رصيف المقهى

صبا توفيق

سلسلة الرواية الأولى

على رصيف المقهى

صبا توفيق

رواية للفتيات والفتيان



مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
ص.ب ١٩٧٣، رام الله- فلسطين
هاتف: ٢/٠٢ ٢٩٨٦١٢١
فاكس: ٠٢ ٢٩٨٨١٦٠
البريد الإلكتروني: tamer@palnet.com
الموقع الإلكتروني: www.tamerinst.org

Tamer Institute for Community Education
P.O Box: 1931, Ramallah - Palestine
Tel: 02 2986121/2
Fax: 02 2988160
E-Mail: tamer@palnet.com
Website: www.tamerinst.org

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

الصندوق العربي للثقافة والفنون
The Arab Fund for Arts and Culture
صدر هذا الكتاب بدعم من
الصندوق العربيّ للثقافة والفنون

رسومات: شريف سرحان
الإخراج الفني: أضواء للتصميم. هاتف: 02 2980552

مقدمة:

تقدمُ مؤسسة تامر هذه الكتب الثلاثة لتجمعَ مبادرات مبدعة لثلاث من الكاتبات الفلسطينيات الشابات. أولت مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي ضمنَ رؤيتها اعتباراً للمجاورات الأدبية بين الشباب الفلسطيني من خلال خلق مساحة من التعبير الحرّ والتبادلِ الفكريّ بين فئة الفتيانِ والفتيات، الذينَ وجدوا في «أيام أدبية» فرصةً حقيقيةً لمعرفة حاجاتهم وتطوير مهارات التواصلِ فيما بينهم، والأخذ بالاعتبار ما تفتقرُهُ مكتباتُهم من موضوعات أدبية كُتبت خصيصاً لفئتهم. هذه الكتب هي: «شيءٌ من نور» للكاتبة الشابة غيد عبد العزيز الهسي، «الصورة» للكاتبة الشابة نجلاء عطا الله، «على رصيف المقهى» للكاتبة الشابة صبا توفيق.

وقد تناولت الكتبُ الثلاثةُ المواضيعَ التي تهمُّ فئة الفتيانِ والفتيات والتي يشعرون بضرورة وجودها ضمنَ كتب تعكسُ تجاربَهم في الحياة، وخصوصية وضعهم كفلسطينيين، وبالأخصّ في قطاع غزةَ، حيث يعانونَ من ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية سيئة، وطبيعةَ أحلامهم وما يريدون أنْ يروا عليه الحياةَ في فلسطين المحتلة، وعن أفكارهم وتطلعاتهم وطموحاتهم كفتيانٍ وفتياتٍ يعيشون ظروفاً استثنائيةً على جميع الأصعدة.

وفي سياقٍ أكثرَ عمقاً في العملِ مع الشباب، فقد كان التركيزُ على خلق مجموعةٍ من الكتّاب والكاتباتِ اليافعينَ واليافعات في قطاع غزة، تكونُ مرجعيتُهم أبناءُ بيئتهم الذين يشاركونَهم الظروفَ والمعاناةَ والاهتمامات والأحلامَ، خصوصاً لما يفتقرُهُ القطاعُ من كتّابٍ لليافعينَ يمتلكونَ الأدواتَ الإبداعية، وبذلك يكونون أقدرَ على التعبيرِ عن هذهِ الفئة وعن كل ما يَمَسُّها. تم العملُ مع مجموعة مكونة من اثني عشر كاتباً وكاتبةَ من الشباب والشابات على تقنيات الكتابةِ لليافعين، اشتملَ على مجموعة من العناوين الرئيسيةَ مثل تحليلِ نماذج من أدب اليافعين المحلية والعالميةً، فن الرواية والقصةَ والشعرِ وتقنياتها، وخصائص الفئة العمريةَ لليافعين. وتم تكثيفُ اللقاءاتَ في الكتابة العمليَة استمدت عناوينَهاَ وموضوعاتها مما تم مناقشتهُ بين الفتيانِ والفتياتَ أثناءَ مجاورتهم الأدبية، حيث اختيرت هذه الموضوعاتُ لتكونَ العناوينَ الرئيسيةَ والمكوّنَ الأساسيَّ لكتاباتِ الشبابِ والشابات،

والتي تم العملُ على تطوير أفكارها الأدبية ورفع مستواها الفني. تواصلت اللقاءاتُ مع الكتّابِ والكاتبات لمدة أربعة أشهر تم العملُ فيها على قراءةَ النصوص والأعمالَ الأدبية مَن خَلال مَناقشةً عملية تطورِها، والمشاكلِ العمليةِ الكتابية، لتصبحَ عملاً أدبياً لليافعين صالحاً للنَشر.

ولدعم الجهود الشابة وتوثيقها، أنتجَ الكتّابُ والكاتباتُ ثمانيةَ أعمال أدبية تنوعتَ بينَ الرواية والقصةَ القصيرة الموجهة لليافعين. تم تقييمُ هذهِ الأعمال من خلال لجنة ضمتَ خمسةً من كتّاب محليينَ وممثلينَ عن مؤسسة تامر، واختيرت ثلاثةُ أعمال باعتبارها الأفضلَ بينَ ما تم تقديمهُ ليتمَّ العملُ على إنتاجها وطباعتها ومنً ثم توزيعها لتعميم التجربة، وبالنتيجة كان هذا الكتابُ أحدَ الكتبِ الثلاثةِ الأولى لهؤلاء الكتّابَ والكاتبات.

تتقدمُ مؤسسةُ تامر بالشكرِ الجزيل لكلٍّ من أسهم في إنجاح هذا المشروع وإصدارِ هذا الكتاب، وتخصُّ بالذكرِ الصندوقَ العربيَّ للثقافة والفنونَ لرعايته ودعمه المتواصل للمجتمع الفلسطيني، والشبابَ والشابات المشاركين في «أيامَ أدبيةَ»، والأستاذين عاطف أبو سيف ومحمود شقير علَى قيامهما بمتابعةِ العملِ معهم على هذهِ الكتب.

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي، ٢٠٠٩


على رصيف المقهى

ـــ١ـــ

شارفت السنة على الرحيل، وكانت الأيام الأخيرة من كانون الأول أحب الأيام إلى نفسه، على الرغم من أمطارها الغزيرة ورياحها الباردة، فهو يعشق هذه الأجواء التي توقظ فيه كلمات يستغربها بعد أن يخطّها على الورق.

لا يختلف هذا الصباح عن صباح يوم أمس كثيراً، فبرودة الجوّ التي تحاصره من كل جانب بتواطؤ مع الكسل، أغرته على البقاء مستدفئاً في فراشه، لكنه مضطر للنهوض، فثمة ما ينتظره.

بخطى متثاقلة، نهض وارتدى ملابسه، لم يتعب نفسه بالذهاب إلى الحمام لغسل وجهه، خشية أن تبدّد برودة الماء ما تبقى من دفء يديه، ثم انتعل حذاءه وعقد رباطه بحذر. بحث عن صندوقه الخشبي حتى وجده بجانب الباب، تأبطه وخرج متسللاً كي لا يوقظ أحداً من أهله، إذ لم تكن الساعة قد تجاوزت السادسة صباحاً، لكنه معتاد على الاستيقاظ مبكراً، لأنه يحرص على أن يكون أول الواصلين إلى موقف الحافلات.

لم يتفاجأ كثيراً عند خروجه، برؤية المياه تغمر الشارع غير المرصوف المحاذي لبيته، فالأمطار لم تتوقف عن الهطول طوال الليلة الماضية، مكونة بركاً من المياه في معظم الشوارع المحيطة بالحي الذي يسكن فيه. حاول جاهداً أن يتفادى البرك الصغيرة لمنع الماء من التسرب داخل حذائه المثقوب، ولم تثمر محاولات القفز في ما بينها، فحذاؤه كان بالياً جداً، وأعجزَ من الإبحار في شوارعَ غارقةٍ تماماً.

بدا له أنَّ تجمهر الناس اليوم غير عادي، وسرعان ما أدرك أن غزارة الأمطار عرقلت حركة السير في الشوارع المجاورة، ما دفع الناس للتوجه إلى موقف الحافلات الخاص بالحي، غير أن ذلك لم يصبه بالنكد، فبالرغم من وصوله متأخراً عن الموعد المعتاد بربع ساعة، بدا فرحاً لرؤية هذا الحشد الكبير من الناس، وأقرب للتفاؤل.

أمعن النظر في وجوه الحاضرين، ثم تأمل المساحة المحيطة به، واتجه إلى الناحية الشرقية للموقف. وضع صندوقه أرضاً، أخرج لوحاً من الكرتون وثبّته على الحجر الكبير الذي يحتل بقعة لافتة من المكان، وبدأ بإفراغ محتويات الصندوق فوق اللوح بترتيب وإتقان.

لم يكد ينهي مهمته، حتى تقدم نحوه، بخطوات هادئة وابتسامة مرسومة، رجلٌ طويل القامة، حسن الهندام، في الثلاثينات من عمره، بادره بألفة قائلاً:

- «صباح الخير محمد، ما الذي أخّرك يا رجل؟».

- «أهلاً أستاذ أنور، صباح النور».

ردّ الفتى، ثم أردف قائلا:

- «الشوارع غارقة بالمياه، ولم يكن قدومي سهلاً. أنت تعرف شوارع الحي».

علّق الرجل وهو يربت على كتفه النحيلة:

- «كنت متأكداً من وجود عذر ما لتأخرك، منذ ثلاث سنين وأنا معتاد على وصولك قبلي، إلا في تلك المرة».

- «نعم أذكر جيداً، كان ذلك قبل سنة ونصف تقريباً، وكنت حينها...».

قاطعه الأستاذ أنور مستعجلاً وهو ينظر إلى ساعته:

- «لا عليك الآن، المهم أنك هنا، أعطني علبة الدخان حتى لا أتأخر عن الحافلة».

ناوله محمد علبة الدخان، أخذها الأستاذ وهو يخرج بيده الأخرى محفظته من جيبه بتثاقل، كأنه يبحث عن شيء ضائع، فبادره محمد قائلاً:

- «إن لم تكن تحمل نقوداً فلا بأس عليك، أستاذ أنور، حاسبني غداً».

وإذ بعيني الأستاذ تتسعان وهو يحدق في محمد لبرهة، ثم قهقه بصوت عال هاتفاً:

- «لا أحمل نقوداً! يا لك من أبله»، هاك...».

أعطاه ثمن الدخان وغادر وهو يقول:

- «أراك غداً، أتمنى ألا تتأخر كاليوم، سلام».

لم يتضايق محمد كثيراً من مقاطعة زبونه له أثناء الحوار، ولا من طريقة تعامله المتعالية، فهو يفهمه جيداً، إذ مضى على معرفته به نحو ثلاث سنوات، أدرك خلالها أن الأستاذ أنور يجامله إشفاقاً عليه، وعلى الرغم من كونه زبوناً دائماً لديه، إلا أن محمداً كان مدركاً بُخلَه، فكلما فتح محفظته ولم يجد «فكّة» ثمناً لعلبة الدخان، يتوتر، بل إنه يتراجع أحياناً عن شراء علبة الدخان، مدعياً سوء حالته الصحية. والحقيقة أنه لا يريد أن يعطي محمدا نقوداً ورقية، لأن الأخير نادراً ما يحمل فكّة كافية، والأستاذ لا يحب أن يترك نقوده عند أحد، أو أن يهبها لأحد، حتى لو كانت بضعة شواقل.

هلّ الزبائن كعادتهم هذا الصباح، على الرغم من برودة الجو، وكان محمد حريصاً على علاقته الطيبة معهم. لم يكونوا كلهم في مثل فظاظة الأستاذ أنور وتعاليه وبخله. «الحمد لله، مرت نصف ساعة واستطعت بيع نصف البضاعة»، تمتم محمد، وانهمك في إخراج ما تبقى من علب الدخان من الصندوق. وبينما هو منشغل في عمله توقف فجأة، كمن تذكّر شيئاً أضاعه. اعتدل في وقفته، وضع ما في يديه على لوح الكرتون، حبس أنفاسه لوهلة وعقد حاجبيه، كمن يتأمل في هدوء.

أطلّت من الشارع المقابل، بددت بقامتها المشوقة غبش الصباح الذي ينتشر في المكان، ظلّ يراقبها بتحفظ وهي تقطع الشارع، باحثة عن مكان تقف فيه، إلى أن استقرت فوق بقعة تبعد عنه بضع خطوات. لاحظ ارتباكها، أو بالأحرى لفتت انتباهه تمتمة شفتيها. حاول جاهداً

قراءة ما تقوله، ولم ينجح. لم تكن تقف بهدوء، إذ إنها تتقدم خطوة وتتراجع خطوتين تارة، ثم تتقدم خطوتين وتتراجع خطوة تارة أخرى، وهي تتشبث بحقيبتها. ما أثار دهشته، نظراتها الخائفة التي كانت تجول في المكان، على المارة، وعلى السيدة التي تقف بمحاذاتها، والتي بدورها لم تتوقف عن تأمل الصبية بنظرات غريبة.

ضرب جبينه بيده وهز رأسه كمن يوقظ نفسه من حلم، وتذكّر على الفور قصص الخيال والروايات البوليسية التي اعتاد استعارتها من المكتبة. أخذ شهيقاً عميقاً، قبل أن يقرر إزاحة بصره عنها، فلم يتبق على وصول الحافلة سوى عشر دقائق، سيستفيد منها في بيع بعض بضاعته. انشغل بتوافد الزبائن الجدد، غير أنه لم يكف عن استراق النظر إليها. لمحها تبتسم فجأة، وقد اختفت غيمة التوتر التي كانت تخيم على وجهها، فارتسمت عليه إشراقة جميلة.

«ياه..كم ابتسامتها دافئة!»، همس لنفسه، وهو ينظر في الاتجاه الذي كانت ترنو إليه، وإذ به يرى منى، شقيقة صديقه أيمن، التي اعتاد قدومها يومياً في مثل هذه الساعة من الصباح لتستقل الحافلة إلى المدرسة. تصافحت الفتاتان، وانهمكتا في تبادل أطراف الحديث.

فكر محمد: «آه لو أنني فتاة! لو أن بإمكاني الاقتراب قليلاً لسماع صوتها! عن أي شيء تتحدثان؟ ولمَ هذا الاهتمام الغريب؟»، ثم تساءل إن كانت هذه الفتاة صديقة لمنى، ولِماذا لَم يرها قبل اليوم! «أين أنت يا أيمن؟ عندما أحتاجك لا تظهر!»، تمتم، ثم انتبه مردداً: «الساعة، الحافلة، كم تبقى لوصول الحافلة؟».

نظر إلى الرجل الواقف بالقرب منه وسأله عن الساعة، فأدرك أنه لم يتبق على وصولها سوى بضع دقائق، ولم يكد يدير وجهه صوب الفتاتين، وإذ بالحافلة تخيب أمله، وتصل مبكرة عن موعدها المعتاد.

بدأت زخات المطر بالنزول، طلب سائق الحافلة من الركاب الإسراع في الصعود، خوفاً من أن يشتد هطول المطر. أخذوا يتجمعون ببطء وهم يتّقون براحات أيديهم أو حقائبهم، المطر الذي اشتدت رشقاته، فتدافع الجميع صوب الباب. تشتت نظر محمد ولم يعد يرى الصبيتين.

- «محمد.. الدخان..!!» هتف به أحد زبائنه.

انتبه محمد لبضاعته المفرودة، وانهمك في تغطيتها بعد أن طالها البلل. حاول الوقوف على أطراف أصابع قدميه آملا أن يلمحهما، لكن دون جدوى، فقد جاء ركاب جدد، كانوا يتراكضون مسرعين، ليستقلوا الحافلة قبيل انطلاقها.

بعد دقائق، خرج محمد من أسفل مظلة المقهى التي احتمى بها أثناء هطول المطر، وعاد إلى مكانه. أزال غطاء النايلون الذي غطى به علب الدخان، ثم نظر إلى السماء تعلو وجهه علامات استفهام كثيرة عن هذا الصباح، الغريب الجميل المحير، إذ بعد أن رحلت الحافلة هدأ المطر.

ـــــ٢ـــــ

يوم الجمعة..

لم يكن محمد معتاداً على سماع تذمر أصدقائه من يوم الجمعة، الذي ينتظر معظمهم قدومه بفارغ الصبر، للنوم أو للخروج مع العائلة لزيارة الأقارب. بالنسبة لمحمد، يوم الجمعة لم يكن يوماً مختلفاً، كان كباقي أيام الأسبوع، يوم عمل، عمل، عمل، لا جديد فيه سوى أنه يتيح له الجلوس مع عائلته لتناول طعام الإفطار معها. كان يسمح لنفسه أحياناً، بالنوم ثلاث ساعات إضافية، يذهب بعدها إلى موقف الحافلات، لكي يستفيد من خروج المصلين من المسجد. ولم يكن هذا يحدث إلا قليلاً، وبخاصة حين يكون الجو بارداً ويشتد هطول المطر.

اضطرّ اليوم للنهوض مبكراً على صوت أمه وهي تؤنب أشقاءه الذين يتشاجرون وتعلو أصواتهم في الغرفة المجاورة. لم ينم سوى خمس ساعات، لأن أنين والده المريض كان يدق في رأسه طوال الليل. تململ في سريره وسمع وقع خطوات والدته، وهي تقترب من الغرفة التي ينام

فيها، توقع أن تفتح الباب لتوقظه كالعادة ليتناول الفطور مع أشقائه. بدت كأنها توقفت خلف الباب لبرهة، ثم تراجعت عن ذلك واتجهت عائدة إلى المطبخ.

حاول النهوض من فراشه، لكنّ الإرهاق كان أقوى منه، فاستسلم أخيراً للنعاس. استرق ساعة نوم إضافية، قبل أن يحس يد والدته وهي تربت على كتفه قائلة:

-«محمد، قم يا ولدي، الساعة الآن التاسعة والنصف».

فتح عينيه وأدار وجهه صوب أمه، وجدها جالسة وبجانبها صينية الطعام، استغرب الأمر، وعلم لحظتها أن هناك أمراً ما ستحاول الحديث عنه.

- «أمي، ألم يفطر الجميع؟»، سأل محمد.

أجابته وهي تمسح جبينه:

- «بلى يا عزيزي، سبقوك وهم يدرسون الآن. فضلت أن أتركك نائماً، فقد بدا عليك التعب هذا الأسبوع».

صمتت الوالدة برهة، نظرت في عيني محمد، بعد أن كانت تتهرب منهما بالنظر إلى الطعام وادعاء تجهيزه، ثم قالت:

- «بني ..أنت أكبر إخوتك، وأنت تدرك أن مسؤوليات البيت تزداد يوماً بعد يوم، وصحة والدك تتدهور كل يوم».

كاد أن يقاطعها لكنها تابعت قائلة:

- منذ ثلاث سنين وانت تعمل من السابعة صباحا حتى السابعة مساء، ضحيت بدراستك، وأنت تعولنا جميعاً".

صمتت لحظة ثم قالت:

- "أنا خائفة، والدك بحاجة إلى أدوية غالية الثمن، وقد يحتاج إلى إجراء عملية جراحية كما قال الطبيب".

قالت بعد لحظة:

"لهذا السبب قررت العمل".

هبّ محمد من فراشه، وهو يتوقع نوع العمل الذي يمكن لأمه أن تقوم به. سألها بصوت عالٍ:

- "العمل! أي عمل هذا؟!".

- "اخفض صوتك، أبوك لا يعلم بعد بقراري هذا، اسمعني جيداً".

اقتربت منه أكثر قائلة بصوت خفيض:

- "علمت من جارتنا، أن السيدة أم رمزي، التي تسكن في الشارع المجاور، بحاجة إلى من يساعدها، بعد أن أصبحت طاعنة في السن، ولم يعد أولادها قادرين على المجيء إليها كالسابق. سأقوم بمساعدتها في إنجاز أمور المنزل".

قال محمد وكلماته تدل على مدى انزعاجه:

- "يا أمي، أعدك بأن أجد عملاً إضافياً. ألم تفكري ماذا سيقول الجيران والأعمام والأقارب؟ كلام كثير سيقال".

قالت بحزم:

- "لا يهمني الكلام، المهم أنت وإخوتك ووالدك"

سكتت وهي تكتم حزنها.

- "ولكن يا أمي"، قال محمد كمن يستعطفها. قاطعته وقالت:

- "أعلم كم يصعب عليك تقبل الأمر، لكن هذا أفضل لنا جميعاً".

ثم خرجت بهدوء وأغلقت باب الغرفة. ظل محمد جالساً على فراشه كتمثال خشبي، دون أن ينبس ببنت شفة، فهي لم تعطه فرصة للاعتراض، وبدت كأنها حسمت أمرها مسبقاً، وجاءت لتخبره فقط بما قررت أن تفعله. أسند ظهره للحائط وأحس بثقل كبير يطبق على صدره، تزداد وطأته وتزداد، ثم راح يتذكر..

كان يوماً حاراً من شهر آب، وقد بث المذياع تحذيراً للمواطنين بعدم الخروج إلا للضرورة، لأنه تم نقل حالات إغماء وقيء وإسهال كثيرة إلى المستشفى، بسبب موجة الحر الشديدة التي تجتاح المنطقة.. حاولت والدته جاهدة ثني والده عن الخروج في ذلك اليوم، غير أنه كان مرتبطاً بعمل.

- "لا تقلقي يا أم محمد، سأعود خلال ساعات قليلة".

- "مشوارك طويل، وأخاف أن يرتفع ضغطك وتغيب عن الوعي".

أجابها ضاحكاً:

- "لا عليك، سآخذ دوائي كالمعتاد، لكني وعدت الرجل صاحب الخراف

أن أنقلها له اليوم".

- "حسناً إذن.. خذ محمد معك".

- "لا داعي لذلك، محمد لديه واجبات يفعلها".

ورغم عدم اقتناع أم محمد بأعذار زوجها، إلا أنها حاولت طرد كل الهواجس والمخاوف التي ظلت تلاحقها تلك الليلة، بسبب تأخر زوجها مرددة "الطريق طويلة وهو بخير الآن، لمَ القلق؟"، إلى أن رن جرس الهاتف قبيل منتصف الليل بقليل. كان شخص يخبر أم محمد بأن زوجها نقل إلى المستشفى بعد تعرض المزرعة التي كان فيها لقصف جوي، ما أدى إلى استشهاد أحد العاملين فيها وإصابة آخرين، وقد أصيب زوجها بشظايا في ساقيه.

عرف محمد بما وقع. أصبح والده مقعداً، ولم يعد أمامه سوى العمل. منذ ثلاث سنوات وهو يبيع الدخان محاولاً تلبية احتياجات أسرته، وهو مجبر اليوم على قبول عمل والدته! ولكن أي عمل!

تسللت خيوط الشمس عبر الثقوب المبعثرة في الستارة التي تغطي النافذة، لتبدأ بنشر الدفء في الغرفة الباردة. اعتدل محمد في جلسته، تَنَهّد ثم وقف وارتدى معطفه استعداداً للخروج، وقبل أن يتجه نحو الباب اقترب من النافذة، أزاح الستارة، نظر إلى الشارع وتحسس خيوط الشمس التي بدأت تعم المكان، أغمض عينيه برهة فأحس بدفء غريب يسري في جسده بعد أن كان يرتعش من البرد.

٣

وحيداً على رصيف المقهى، جلس محمد يشاهد غروب الشمس، فبعد قليل سيذهب مع أصدقائه إلى الساحة الخلفية لموقف الحافلات ليلعبوا كرة القدم. أحكم أزرار معطفه محاولاً التصدي لنسمات كانون الثاني الباردة، لكن أفكاره كانت تتزاحم وتتزاحم إلى أن تعب من التصدي لها. فكّر في عائلته، في والده المريض وإخوته، أحس بألم عندما تذكر والدته. ها هو نهار يمضي وراء نهار، كالأمس وما قبل الأمس، وها قد بدأت السنة الجديدة وكل الأشياء على حالها.

أطلق آهة طويلة حارقة، أحس بعدها بحزن يتغلغل في صدره. نهض من مكانه وراح يلملم بضاعته، فقد أوشك صديقه أيمن على القدوم. تربطه بأيمن صداقة بدأت منذ كانا في العاشرة من العمر، ورغم توقف محمد عن الذهاب إلى المدرسة، فإنه لم ينقطع عن رؤية صديقه، الذي ينتمي إلى عائلة ميسورة الحال، إلا أن هذا لم يمنع توطد صداقتهما. كان الولدان يحبان تمضية الوقت معاً، واعتادا التشارك في كل شيء،

حتى أنهما يقولان الكلمات نفسها أحياناً.

ابتسم محمد وهو ينهي توضيب بضاعته، حين تذكر الشجارات المتكررة التي خاضها ويخوضها مع أيمن ضد أولاد الحارة المجاورة. كان ينفجر ضاحكاً هو وأيمن وأصدقاؤهما حين ينتهي الشجار "بعلقة" ساخنة لأولئك الأولاد.

- "كالعادة، في عالم آخر مع نفسك"، قال أيمن بعد أن تسلل من وراء محمد، ليفاجئه بعد أن رآه يبتسم، غير أن محمداً بدا عصبياً وهو يقول:

- "كم مرة يجب عليّ أن أخبرك بألا تفاجئني هكذا؟".

أجاب أيمن ضاحكاً:

- "لا أستطيع منع نفسي من إفزاعك، أرجوك لا تحاول إفساد متعتي".

رد محمد وقد خفّت حدة عصبيته:

- "ماذا أفعل معك؟"، قاطعه أيمن:

- "لن تفعل شيئاً، أبعد كل هذه السنين لم تعتد على مقالبي؟"، ثم أردف وهو يربت على كتفه:

- "هيا الآن، دعنا نذهب إلى الملعب، بعد عشر دقائق سيكون الجميع هناك".

قال محمد بارتباك:



- "من تقصد بالجميع؟"، فأجابه أيمن:

- "أنسيت! اليوم مباراتنا مع سامر وأصدقائه".

- "نعم نعم، المباراة، كنت نسيتها تماماً"، قال محمد متلعثماً في كلامه، فتابع أيمن:

- "سنغلبهم بالتأكيد، سنتبع الخطة الجديدة التي تحدثنا عنها الأسبوع الماضي، أنا وأنت في منطقة الهجوم، والتوأمان ياسين ورامي في خط الدفاع و.."، انتبه أيمن إلى صمت محمد وشروده، فقال وهو يحدق في وجهه:

- "محمد، هل أنت معي؟ أين شردت؟"

حاول محمد إخفاء ما لاحظه صديقه قائلاً:

- "لا..لا.. لم أشرد، أكمل أكمل". وقف أيمن في مكانه، وهو يصوب إلى محمد نظرات تحمل كثيراً من التساؤلات والحيرة، ثم قال بقلق:

- "أتخفي عني شيئاً، أخبرني ما المشكلة؟"

- "لا شيء، ولمَ يجب أن تكون هناك مشكلة؟ كل الموضوع أنني أشعر بصداع ولن أستطيع اللعب اليوم".

- "سلامتك.. لمَ لَم تقل هكذا من بداية الأمر؟ لا عليك، اذهب واسترح، وسأخبر الأولاد بتأجيل المباراة للأسبوع القادم".

قاطعه محمد باندفاع واستعجال استغربهما أيمن:

- "لا لا، لمَ التأجيل؟ لتبقَ المباراة في موعدها، أنا سأجلس قبالتكم لمشاهدتكم وتشجيعكم".

سكت أيمن ونظر إلى عيني محمد، الذي أشاح بوجهه هارباً من عيني صديقه، مدعياً انهماكه في توضيب بقية البضاعة، فقال أيمن:

- "حسناً، كما تريد".

وقف أيمن صامتاً، وهو يأمل من صديقه أن يخبره سبب حزنه. كان يعرفه جيداً إذا ما حاول إخفاء شيء عنه، سريعاً ما تفضحه عيناه، وتظهران له ما يعجز لسانه عن قوله.

- "إذا انتهيت، هيا بنا نذهب"، قال أيمن بعد لحظات من الصمت. ولم يكد يخطو خطوته الأولى وإذا بمحمد يوقفه ممسكاً بيده قائلاً:

- "لا تحزن أرجوك"، ثم أضاف مبتسماً:

- "أعدك باللعب في المرة القادمة، لا داعي لتأجيل المباراة".

قاطعه أيمن بصوت حاد:

- "لماذا تكذب علي؟ رأسك ليس السبب، فلا تحاول خلق أسباب واهية، أنا أعرفك يا محمد، أنت مولع بكرة القدم وتنتظر يوم الخميس بفارغ الصبر لنلعب معاً، ماذا هناك؟".

أجابه محمد:

- "لماذا تصر على عدم تصديقي؟ وماذا سيكون هناك غير هذا السبب؟"

اقترب أيمن من محمد وقال مخففاً من حدة لهجته:

- "حذاؤك هو السبب، أليس كذلك؟".

حاول محمد الإجابة، لكنه امتنع عن ذلك. لم يجد كلمات تسعفه في تلك اللحظة، قال أيمن:

- "لا عليك يا صديقي، في الأسبوع الماضي امتنعت عن اللعب وأقنعتني بأنك متعب، ووعدتني باللعب هذا الأسبوع، لكن ها أنت تعيد الوعد نفسه وتشكو من الصداع نفسه".

ورغم أن أيمن يدرك جيداً صعوبة ثني محمد عن رفضه المستمر لأية مساعدة منه، إلا أنه قرر أن يستجمع قواه، وأن يلح عليه بضرورة الإفصاح عما في نفسه، إذ لم يعجبه تهرب صديقه المستمر.

ظل يلح عليه حتى تنهد وقال:

- "أمي ..أمي بدأت العمل منذ أسبوع".

لم يعلق أيمن بأية كلمة، نظر محمد إليه لحظة ثم تابع قائلاً:

- "تعمل في بيت سيدة تسكن في الشارع المجاور لمنزلنا، سيدة شيخ وتحتاج لمن يساعدها في أعمال المنزل ورعايتها صحياً".

أحس أيمن بوجع داخلي، ومر شريط سريع من التفاصيل في مخيلته، تذكر والد محمد الذي أصيب في القصف، وأدرك السبب الحقيقي لوجوم صديقه، وكيف حاول كتمان الأمر طوال الأيام الماضية. صمت أيمن قليلاً ثم قال:

- "محمد يا صديقي، أعلم مدى حساسية الموضوع بالنسبة إليك، فأنت تعمل كل يوم منذ ثلاث سنوات، حتى لا تجعل أسرتك تحتاج

شيئاً، وكنت أخبرتني منذ مدة عن حالة والدك التي تزداد سوءاً، وقرار والدتك ناتج بالتأكيد عن إدراكها لهذا التدهور في صحته".

قاطعه محمد:

- "لكنها يا أيمن لم تعطني فرصة للاعتراض أو لأخبرها رأيي".

- "لأنها تعلم أنك لن توافق، اتخذت قرارها ولم تترك لك فرصة للاعتراض". قال أيمن مردفاً:

- "صدقني إن كانت قست عليك في قرارها، فهي بالتأكيد تتألم لذلك، ألا تذكر كم بكت عندما اضطررت للخروج من المدرسة، للعمل؟".

بقي محمد صامتاً ولم يجب فتابع أيمن:

- "أرجو أن تتفهم موقفها. العمل عند سيدة شيخ ليس عيباً. حاول رؤية الموضوع من كل الزوايا، ولا تهتم لكلام أحد".

نظر محمد إلى أيمن وعلى وجهه ابتسامة، وبدا أنه راغب في تعديل موقفه، قال:

- "العمل هو العمل يا أيمن".

وحاول أن يخلق لنفسه مبرراً جديداً، قال:

- أنا لا أريد لأمي أن تشقى، لكن ما باليد حيلة".

ثم شدّ على يد أيمن قائلاً:

- "أشكرك صديقي، كلامك خفّف عني قليلاً". فابتسم أيمن قائلاً:

- " يبدو أنك تريد الشجار معي اليوم، لا يوجد شكر بيننا، نحن واحد، هيا الآن إلى الملعب".

تأبط أيمن ذراع محمد هاتفاً بصوت مرتفع:

- "هيا الآن، من دون تضييع للوقت. أكيد، سامر والأولاد وصلوا الآن".

وبينما كان محمد وأيمن يعبران الشارع، وإذ بهما يلتقيان فتاة الموقف. التفت محمد نحوها، لكنها مضت، وظل يلاحقها بنظراته إلى أن وصلت باب مقهى الانترنت في الجهة المقابلة. التفتت باتجاهه، وأرسلت إليه نظرة خاطفة، ثم استدارت ودخلت المقهى.

التفت محمد إلى أيمن وقال بلهفة:

- "أرأيتها؟"

- "رأيت..من تقصد؟" تساءل أيمن، فهتف محمد:

- "تلك الفتاة التي مرت بجانبنا". أطرق أيمن لحظة ثم تساءل:

- "أي فتاة، آه، تلك، نعم ، رأيتها سابقاً مع شقيقتي منى".

قال محمد بلهفة أشد:

- "حقاً، وهل أخبرتك عنها شيئاً؟"

- "إمممممم، ليس كثيراً. كل ما قالته لي إنها جاءت إلى مدرستها مؤخراً، أعتقد أنها حضرت من دمشق. منى تحب مرافقتها، تقول إنها لطيفة جداً".

ثم صمت فجأة وسأل بمكر:

- "ولكن لم هذا الاهتمام المفاجىء بها؟ أنت ترى منى دائماً وهي تمشي مع صديقات لها، ولا تسأل عنهن؟"

تفاجأ محمد بسؤال أيمن وتلعثم قائلاً:

- "أنا؟ أي اهتمام تتحدث عنه؟ لا، لا، ليس هذا اهتماماً. إنه مجرد سؤال. كل ما هنالك، أني رأيتها قبل أسبوعين تقريباً في الصباح، حينها كنت..."، سكت متهرباً من سؤال أيمن، ثم تابع قائلاً ليبدد استغرابه ويمنعه من الكلام:

- "قصة يطول سردها، سأخبرك عنها لاحقاً، لكن ألم تخبرك منى عن اسمها؟". ظلت عيناه تلمعان في انتظار الجواب.

ابتسم أيمن ابتسامة ماكرة، ثم وضع يديه في جيوبه وبدأ يتحرك في مكانه:

- "اسمها، اسمها، ماذا كان اسمها يا أيمن؟".

وصار يروح ويجيء في خطوات للأمام والخلف، ثم نظر إلى محمد فوجده يتابعه بعينيه مصطنعاً اللامبالاة. انفجر أيمن ضاحكاً:

- "ههههه، كل هذا وتقول إنك لست مهتماً؟ اسمها دلع، دلع يا محمد، هيا الآن، هيا، لقد تأخرنا!!!!!!!!، وهذا الموضوع ستشرحه لي غداً شئت أم أبيت".

لم ينطق محمد بكلمة واحدة، تابع سيره مع أيمن وهو يحس بتغيّر كل

شيء من حوله، وحين أخذ أيمن يراجع معه خطة اللعبة بتفاصيلها التي لم يكن محمد يسمعها، أحس لأول مرة بسعادة غريبة.

ألأنه رآها للمرة الثانية؟ أم لتلاقي عيونهما؟ أو ربما لمعرفته اسمها؟ لم يعد يعرف شيئاً، سوى أنه محمد آخر غير محمد اللحظة الماضية.

٤

بخطى سريعة قطع الشارع وفتح باب البيت، أغلق مظلته القديمة المتكسرة الأسلاك، مسح حذاءه من الوحل العالق به، بالخرقة المفرودة على الأرض، ثم خلع معطفه وعاد يفرك يديه من شدة البرد.

- "جاء محمد، جاء محمد"، ردد شقيقه الصغير وهو يركض نحوه، حمله محمد وقال مبتسماً:

- "أيها العفريت الصغير، دائماً تفزعني".

- "ششش، صوتكم، أبوكم نام قبل قليل"، قالت الأم بصوت خافت وهي تطل برأسها من المطبخ، قال محمد لأخيه:

- "هيا الآن إلى الغرفة، وسألحق بك عما قليل"، ثم دخل عند أمه وهي تعد طعام العشاء.

- "كيف صحته الآن؟"، سأل محمد أمه، فأجابت:

- "أفضل، أخذ الدواء ونام قبل ساعة. سكتت برهة وتابعت "أحسست بارتفاع معنوياته اليوم".

قال محمد:

-"أجل، وأنا كذلك، كنت خائفاً من نتائج الفحوصات، لولا طمأنة الطبيب لي بأن جسده بدأ تقبل العلاج بشكل جيد، ومع الوقت سوف يستعيد قدرته على المشي".

لم تجد الأم كلاماً تقوله، تغلبت على دموعها وابتسمت قائلة:

- "كل شيء يحتاج إلى وقت، ولا شدّة تدوم، إذا ما تمسكنا بإيماننا بالله تعالى".

- "نعم يا أمي، إنها مسألة وقت لا أكثر، لكن يجب أن نبقى حوله طوال الوقت، وألا نشعره بحزننا عليه حتى تخف آلامه ويتعافى بسرعة".

هزت الأم رأسها، وربتت على كتف ابنها ثم انشغلت في تحضير الطعام.

سرح محمد مع صوت زخات المطر القوية في الخارج، وابتسم سعيداً لما حدث اليوم مع أبيه، فقد اعتاد أن يذهب ووالدته مع والده كل شهر إلى المستشفى، لإجراء فحوصات دورية. لاحظ الطبيب من فحوصات الشهرين الماضيين أن والده بدأ يأخذ دواءه بانتظام، بعد أن كان يرفضه فيما سبق. لم يستطع محمد فهم سبب هذا التغير الذي طرأ على والده، لم يدرك أن أباه كان محتاجاً لفترة من الوقت، لاستيعاب الحادثة التي وقعت له، فلم يكن قادراً على تحمل فكرة جلوسه في المنزل وعجزه عن إعالة أبنائه، وكان يحتاج بعض الوقت للخروج من هذه الحالة.

- "آه، مرة أخرى!" ، قالت الأم بغضب، كأنها تذكرت شيئاً، وأردفت:

- "محمد، اذهب وأضىء شمعة لإخوتك في الغرفة، وابق معهم حتى أنتهي من تحضير الطعام. قطع التيار الكهربائي قبل قليل، وإخوتك صاروا يلعبون بالشمعة التي أضأتها لهم" .

ذهب محمد للغرفة، فوجد إخوته يتضاحكون ويركضون وهم يتقاذفون وسائدهم. حاول إيقافهم، غير أنه وجد نفسه داخل اللعبة دون أن يدري، فصار يرميهم بوسادته أيضاً.

- "ما هذا محمد؟ أرسلتك لتهدئتهم حتى أحضر الطعام فأثرت جنونهم" ، قالت الأم وهي تدخل عبر الباب المتآكلة جوانبه، حاملة صينية الطعام. تعالت ضحكات الأولاد وأخذوا يشدون بنطال محمد، وهم يرجونه أن يكمل اللعب معهم. وعدهم بذلك بعد تناول طعام العشاء.

في تلك الساعة من الليل، كان جميع من في البيت نياماً ما عدا محمداً. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، ولم يستطع محمد النوم، فقد لعب مع إخوته بعد العشاء، ثم جلسوا ملتفين حول المدفأة، تكلموا وغنوا محاولين قتل الوقت، إلى أن تعبوا وناموا قبل ساعة تقريباً، ثم ذهبت أمه للنوم. جلس على فراشه وبجواره شمعة، تدثر بغطائه وأخرج من تحت وسادته دفتراً وقلماً، وبدأ الكتابة.

«لم تعد الأيام مثل بعضها بعضاً! هكذا أُحس، لا أدري ما الذي تغير فعلاً، فاليوم أخبرني الطبيب ببداية تحسن صحة أبي، لا أدري ما الذي

غيّره أيضاً». توقف للحظات عن الكتابة، نظر إلى أشعة القمر المتسللة عبر النافذة، ثم أكمل: «هل كان يحتاج إلى الوقت للخروج من حالته؟ منذ ثلاثة أشهر وهو يأخذ دواءه بانتظام وقد بدأ يلتزم بجلسات العلاج الطبيعي، وها هي التحاليل تشير إلى تحسن صحته». وضع قلمه والدفتر جانباً، أزال الغطاء عنه ونهض ليسير باتجاه النافذة، وقف أمامها وراقب الشارع، فوجده مظلماً هادئاً، تأمل القمر فوجده ساكناً مشعاً بهالة ساحرة، أسند رأسه إلى الحائط، وسرعان ما أحس ببرودته، فهمّ بالعودة إلى فراشه، لكنه لاحظ بخار الماء البارد المتكثف على زجاج النافذة. راح يخربش عليه، وعاد بذاكرته إلى أيام الطفولة، وتذكر كيف كان يحب كتابة اسمه ورسم أشكال غريبة على زجاج نافذة سيارة والده. أحس بتجمد يديه، فعاد ودفأهما بنار المدفأة ثم أطفأها خوفاً من انتهاء وقودها. نظر إلى إخوته الصغار وراقه هدوؤهم وهم نيام، طبع قبلة على جبين كل واحد منهم، ثم اندس تحت الغطاء وعاد لدفتره وقلمه.

«على الرغم من الجو البارد الليلة، إلا أن منظر القمر يضفي دفئاً غريباً عليّ، فأنا أنتظر منتصف الشهر بفارغ الصبر، لأرى القمر بدراً. والمضحك في الأمر أنني قرأت ذات مرة أن هذا الجمال كله ما هو إلا خدعة، فنور القمر مستمد من الشمس، وما القمر إلا صخرة كبيرة خالية من الحياة. ومع ذلك، أفرح لرؤيته، وأحس أن جماله وهدوءه الغريبين يمنحان الحياة طعماً».

توقف هنيهة، تغيرت ملامح وجهه، وبدا كأنه تذكّر أمراً ما، فكتب: «ذهبت اليوم إلى المكتبة، كنت أنوي إعادة ديوان نزار قباني واستعارة رواية، كلمتني السيدة فاطمة عن ذاك العمل الذي عرضته علي من قبل».

هزّ قلمه بتوتر ثم تابع: «أنا متردد إلى أقصى حد، هي تقول إن العمل مضمون والأجر معقول، غير أنني اعتدت بيع الدخان».

والسيدة فاطمة هي أمينة المكتبة العامة التي اعتاد محمد ارتيادها، كانت على الدوام تشجعه على القراءة وتمدحه لمواظبته على استعارة الكتب بانتظام. عرضت عليه أن يعمل في المكتبة مساعداً لها، وكان محمد يعتذر لها باستمرار.

«أحسّ أحياناً أني لا أحب عملي، ليس أحياناً بل دائماً». أغلق دفتر مذكراته بعصبية وقرر عدم إكمال الكتابة، أعاد الدفتر إلى مكانه ووضع رأسه على وسادته، وظلّ محدقاً في الشمعة التي أوشكت أن تذوب.

بدأت زخات المطر تطرق زجاج النافذة، واشتدت تباعاً إلى أن انتظم إيقاعها، فأحس كأنه يستمع إلى شريط مسجل، أغمض عينيه، واستسلم لصوت المطر، وغطّ في نوم عميق.

٥

-«يا له من يوم ممل!»، حدّث محمد نفسه، وكان جالساً على رصيف المقهى، يحاول التلهي بقراءة كتاب. كان الجو صافياً، فقد أمطرت بغزارة في الأيام القليلة الماضية، ولم تكن في السماء اليوم إلا بضع غيمات. ورغم هذا لم يستطع أن يتابع القراءة، تضايق من رائحة دخان السيارات التي تملأ المكان وتخنق المارة، فكيف الحال معه وهو يجلس في هذا المكان ساعات متواصلة يومياً. وضع كتابه جانباً، وانهمك وهو جالس في مراقبة المارة، وهم يذهبون ويجيئون، كان ينظر إلى وجه كل واحد منهم بضع ثوان، ثم يحادث نفسه:

«كل واحد من هؤلاء مشغول بلا شك بشيء ما يستحوذ على تفكيره، آه لو كنت أعرف قراءة الوجوه ومعرفة ما خلف العيون». كان محمد يشعر بالوحدة، فالفترة الراهنة هي الأقسى عليه، إذ أحس خلال الأسبوعين الأخيرين بفراغ. في البداية، حاول طمأنة نفسه وتفسير هذا الشعور، بأنه ناتج عن غياب أصدقائه عنه، فقد كانت هذه فترة امتحانات

نصف العام، ولم يحضروا لرؤيته منذ أيام. استغرب من نفسه فيما بعد، إذ كان يفتقدهم كلّ سنة.

تفهم الأمر وحاول أن يشغل نفسه بالقراءة، ثم انتبه إلى أنه أحس بفرق كبير هذه السنة، فعلى الرغم من حضور أيمن لرؤيته في الأسبوع الماضي، إلا أن ثورة الأفكار داخله أخذت تزداد وتزداد، بمجرد ذهابه. شعر كما لو أنه سينفجر من حدة تزاحمها في عقله، لم يكن يعي أن أموراً كثيرة تغيرت عليه هذه السنة. أمه وقلقه الدائم على والده وإخوته، و...دلع، تلك الغائبة الحاضرة في ذهنه، التي لم يعد يسمع عنها سوى أخبار قليلة من أيمن عن طريق أخته منى.

وقف محمد محاولاً طرد كل هذه الأفكار التي أوشكت أن تخنقه، استند بظهره إلى الحائط المجاور للمقهى، واستمر في مراقبة الناس، وبينما هو كذلك لاح له من أول الشارع أيمن ومجموعة أصدقاء المدرسة. لوح له أيمن بيده مبتسماً، فابتسم له محمد، وبانت عليه الفرحة لقدوم أصدقائه.

حين وصلوا، حدّثوه عن الامتحانات، الصعب منها والسهل، وما هي مخططاتهم للإجازة. انسجم الأولاد في الحديث مع محمد، وإذا بأيمن يهمس لمحمد وهو يبتسم ببضع كلمات، صفق بيديه مطالباً أصدقاءه بالسكوت، نظر إلى رامي وقال:

-«يا شباب، كما تعلمون، اليوم أنهينا امتحانات نصف السنة» فهلل الأولاد وصفقوا، تابع أيمن وهو يهدؤهم:

-«كما تعلمون أيضاً، رامي ينتظر هذا اليوم منذ أسبوعين على أحر من الجمر»، ابتسم الأولاد كأنهم كانوا يعلمون سبب شرود رامي طوال الأيام الماضية.

قال أحدهم متهكماً وهو يرفع يديه إلى السماء:

-«أتمنى أن تحصل على علامات عالية وأن يتمم لك على خير».

لم يستطع الأولاد أن يكتموا ضحكاتهم هذه المرة، فانفجروا ضاحكين. غضب رامي وحمل حقيبته معتزماً الذهاب، لكن محمداً وأيمن استوقفاه وقاما بتهدئته.

قال محمد بعصبية:

-«تتصرفون كالأطفال، ما بكم الآن وكأن حالكم أفضل منه؟»، سكت الأولاد وهدأوا، لم يكن محمد يتكلم سوى عن أصدقائه وتجاربهم السابقة. بدأ الأمر عندما جاؤوا للجلوس عنده في إحدى المرات بعد انتهاء الدوام المدرسي، وكانت تبدو عليهم ملامح الحيرة والقلق، وعندما جاء أيمن، أخبر محمداً أنهم يبحثون عمن يكتب رسالة لصديقهم، يخبر فيها إحدى الفتيات أنه معجب بها منذ بداية العام. وبينما كان أيمن يخبر محمداً بمحتوى الرسالة التي يريدها الأولاد، قال بصوت عال:

- «أنت، أنت يا محمد»، ثم ضرب رأسه بكفه وتابع بإغواء: «كيف نسيت كل الكتب التي قرأتها؟ لا بد من أنك تعرف كيف تكتب»

قاطعه محمد ضاحكاً:

-«توقف عن هذا الكلام الآن»، فغمزه أيمن قائلاً:

- «لا، لا، ألم تقرأ لي الأسبوع الماضي كلمات كنت كتبتها حين كنت مضغوطاً من العمل، وأحسست برغبة في البكاء».

رد محمد:

- «تلك لم تكن سوى فضفضة على الورق»، قال أيمن:

- «إلا أنها كانت كلمات جميلة تعكس إحساسك العالي، اسمع، ألم تقل لي إنك تحب دائماً أن تتخيل أشياء كثيرة؟ تخيل أن ما ستكتبه الآن مجرد خيال أو فضفضة، تعال، تعال».

بعد نقاش طويل، استطاع أيمن إقناع محمد، وهكذا بدأ محمد بمساعدة أصدقائه في اختيار الكلمات المناسبة لرسائلهم، وفيما بعد صار يكتبها بنفسه.

جلس محمد على حافة الرصيف ومن حوله أيمن ورامي، أمسك محمد بالقلم والورقة، وإذا ببقية الأولاد يلتفون حوله، وبدأ كل منهم بالإدلاء بدلوه:

- «محمد..هذه المرة تكلم عن جمال القمر».

- «لا..لا، اكتب عن الوردة كما كتبت لي في المرة الماضية».

- «إذا كنت تريد منها أن تحبه بسرعة، فاكتب عن جمال عينيها و تغزّل بها».



تعالت أصوات الأولاد وكل منهم يقترح صيغة معينة للرسالة ويتحدث عن شيء معين، يراه مناسباً لجذب الفتاة. أسكت محمد الأولاد وطالبهم بالجلوس هادئين حتى يستطيع أن يسمع رامي، وبالرغم من ضيقه وعدم رغبته في كتابة شيء اليوم، إلا أنه التفت إلى رامي وأحس بخجله وتضايقه من الأولاد، فطمأنه قائلاً:

- «هيا، الآن أخبرني ماذا تحب أن أكتب؟»، نظر إليه رامي بحيرة، وكأنه لا يعرف ما سيقول.

- «مممممم.. حسناً، كيف هي هذه الفتاة؟ أقصد ماذا تحس عندما تراها؟»، قال محمد، فأشرق وجه رامي كأنه أدرك بأن محمداً يفهمه ويعرف ما يشعر به، قال بارتباك:

- «كل ما أحسه هو تسارع في نبضات قلبي»، صمت ثم أردف:

- «وما أريده الآن هو معرفة اسمها فقط».

انشغل الأولاد بالكلام فيما بينهم، وبقى محمد جالساً مع رامي بعد أن لاحظ خجله من البوح بكل ما يشعر به تجاه هذه الفتاة، صمت للحظات، تنهد، ثم كتب: «أكتب إليك الآن، وأنا أعرف أنك ربما ستمزقين رسالتي، وربما سترمينها في وجهي، وربما ستقرئينها أيضاً. مذ رأيتك في ذاك اليوم الماطر، لم أستطع نسيان جديلتك المرخاة على كتفك، أو جمال ابتسامتك الخجول يوم مررت بجانبي، تمنيت لو اصطدمت بي صدفة، ووقعت حقيبتك منك، أو لو عاكسك أحد الصبية ورأيته، فأتشاجر معه لأجلك.

لا أدري إن كنت ترينني كما أراك، أو تفكرين بي لحظة في اليوم، لأنني أفكر فيك طوال اليوم. كل ما أتمناه هو أن أعرف اسمك، اسمك فقط».

توقف محمد لحظة عن الكتابة، اتجهت عيناه فجأة إلى زحام الناس في الساحة، وبدا كأنه رأى شخصاً يعرفه، عاد بنظره إلى الورقة وأكمل: «وها أنا أعلم الآن سبب سطوع الشمس في هذا اليوم الشتوي البارد، أرجو منك أن تقرئي كلماتي لتعلمي مدى إعجابي بك».

توقف مرة أخرى عن الكتابة، قام مسرعاً من مكانه وهمس لأيمن:

- «إنها هناك يا أيمن، هناك مع أختك منى».

نظر إليه أيمن باستغراب متسائلاً:

-«من؟»، فأشار محمد بعينيه إلى دلع ومنى الآتيتين من وسط الزحام نحوهما، بدت علامات الارتباك ظاهرة على محمد بصورة واضحة، حتى أنه كاد أن يمزق الورقة التي بين يديه، فهبّ رامي مسرعاً من مكانه هاتفاً:

- «لا لا، الورقة، ما بالك؟!»، أعطاه محمد الورقة وقال متلعثماً:

- «لا شيء، لا شيء أبداً، انتهيت منها تقريباً، أتمنى أن تعجبك».

رجع محمد إلى صندوقه الخشبي وتظاهر بالانشغال، التفت أيمن ليحادثه فلم يجده، ولم يفهم سبب تصرفه، ثم نظر ناحية أخته ورفيقتها، وإذ بهما تعبران الشارع وتتهامسان، اقتربتا منه وأشارت منى لشقيقها بأنها تريد التحدث معه على انفراد. وقفت دلع في مكان يبعد عن محمد بضعة مترات فقط. كانت تنظر بخجل إلى

الناس حولها، وتسترق نظرات سريعة إلى محمد الواقف بالقرب منها، ازدادت ارتباكاً عندما بدأ أصحاب محمد وأيمن النظر إليها والتهامس ضاحكين، احمرت وجنتاها ونظرت إلى منى آملةً أن تأتي بسرعة. لاحظ محمد ما كان يفعله أصدقاؤه فغضب وأراد أن يتشاجر معهم، غير أنه التفت إلى منى وأيمن، اللذين بدا أنهما يتشاجران، فقد تغيرت ملامح أيمن فجأة، واحتدّ وصار يتكلم بعصبية، يحرك يديه كثيراً ومنى تحاول تهدئته.

بقي محمد يراقب منى وأيمن تارة، ودلع تارةً أخرى،وهو في حالة من القلق، محاولاً تخمين سبب قدوم منى ودلع، وما السبب المهم الذي دفع منى لمحادثة أخيها الآن؟

بعد دقائق قليلة، افترق الاثنان، وتوجهت منى إلى دلع، وعاد أيمن إلى محمد، الذي قال بسرعة:

- «أرأيت الأولاد؟ لا أدري لم يتصرفون هكذا! عادتهم لا يغيرونها!»، ثم نظر إلى أيمن وأحس بوجود ما يضايقه، فقال مخففاً من حدة صوته:

- «ماذا كانت تريد منى؟».

أطرق أيمن وهو ينظر إلى محمد حائراً في أمره، حثه محمد على الكلام:

- «قل، ماذا هناك؟»

- «حسناً، سأقول لك، لكن عدني أولاً ألا تحزن».

تسارعت دقات قلب محمد:

- «حسنا، حسناً، أعدك» قال بلهفة.

- «تذكر أنك وعدتني»، قال أيمن ملوحاً لمحمد بإصبعه، بلع محمد ريقه وقال :

-«نعم، قل أرجوك».

قال أيمن بهدوء :

- «أخبرتني منى قبل أسبوع أن المعلمة طلبت من بنات صفها أن تقوم كل واحدة منهن باختيار ظاهرة اجتماعية، لإجراء بحث حولها ولكتابة تقرير مفصل عنها، وقد اختارت منى أن تكتب عن ظاهرة التلوث البيئي التي نتعرض لها، وعن دور الاحتلال الإسرائيلي في ذلك»

قاطعه محمد باستغراب:

- «لم أفهم، لم كل هذه التفاصيل عن بحث منى، ولم اعتقدت أنني سأحزن لسماع شيء كهذا؟!»

نظر أيمن إلى دلع ومنى الواقفتين على مقربة منهما ثم تابع:

- «الموضوع أن دلع اختارت موضوع بحثها عن عمالة الأطفال»، ظل محمد صامتاً ولم يعلق بشيء، فأكمل أيمن ببطء:

- «جاءت منى اليوم هي ودلع لنيل موافقتك على أن تتحدث معك».

نظر محمد إلى أيمن باستغراب متسائلاً:

- «وما دخلي أنا، أنت تقول عمالة أطفال!»، فقال أيمن بتردد:

- «نعم، أعلم، لكنها ستتكلم معك لأنها تود سؤالك عن حياتك الآن وسابقاً، فقد أخبرتها منى أنك بدأت العمل منذ ثلاث سنين و..»، لم يسمع محمد صديقه وهو يتابع الكلام والشرح عن مشروع دلع، لم يستطع التفوه بأية كلمة أو الحراك من مكانه، كانت الصدمة قوية عليه.

«الآن فهمت، يا لغبائي، وأنا أقول إنها تبتسم لي لأنها معجبة. ربما أتت اليوم لنتكلم، أأصبحت الآن نموذجاً لبحثها المدرسي؟ لماذا تجري الأمور على هذا النحو؟»، قال محمد محادثاً نفسه.

- «..هذا كل ما في الأمر، إن كنت لا تريد الذهاب سأطلب من منى أن تعتذر لها وتجد شخصاً آخر، أو فلتغير موضوعها كله».

- «لا، لِم الشخص الآخر؟ اذهب وقل لمنى أن تخبرها بموافقتي»، قال محمد وهو واقف مثل كتلة صخر مثبتة بالأرض.

استغرب أيمن من كلام محمد وأراد أن يناقشه، لكن محمداً أصر على موقفه، فذهب أيمن وأخبر منى، وعندما عاد، كان محمد يراقب فرحة دلع، وكيف ابتسمت وبدت مبتهجة بموافقته.

أخذت منى تتحدث بلهفة مع دلع وهما ذاهبتان إلى المنزل، فالتفتت دلع ونظرت إلى محمد وابتسمت له. لم يستطع إلا أن يبتسم لها.

تمتم رامي محدثاً نفسه وهو يحدق في الورقة:

- «محمد، ما هذا؟! رائع جداً، لا بل أكثر من رائع، لا أدري كيف علمت أن لها جديلة، وذاك اليوم الماطر، من أخبرك عنه؟ أكيد أيمن، أنا أعرفه. وما أستغربه هو أن شاباً عاكسها بالفعل، وقد رأيته يعاكسها، ولا أنكر أنني تمنيت الشجار معه، لكنه أقوى مني.لا يهم، المهم أن الرسالة رائعة جداً. شكراً، شكراً لك محمد».

بعد لحظات، اختفت الفتاتان، حمل الأولاد حقائبهم، ودّعوا محمداً ومشوا عائدين إلى منازلهم، بينما كان رامي يمشي جذلاً بالرسالة التي أودعها حقيبته ليعطيها غداً لفتاته، دون أن يتعب نفسه بالتفكير في سبب معرفة محمد لكل ما ذكره في الرسالة. كان يريد الذهاب إلى المنزل والنوم منتظراً الغد وحسب، أما محمد فقد ظل واقفاً لبرهة في مكانه، يفكر في كل ما حدث له اليوم محاولاً استيعابه وفهمه.

لملم بضاعته وعزم على العودة إلى البيت مبكراً، لأن السماء تلبدت بالغيوم والريح بدأت تعصف بقوة.

٦

مرت إجازة نصف العام سريعاً، استطاع محمد خلالها أن يلتقي أيمن وأصدقاءه كل يوم تقريباً، ورغم ذلك أحس أنها مرت كلمح البصر، وعاد الوضع إلى ما كان عليه.

لم يتحدث أيمن مع محمد عما جرى يوم جاءت أخته ودلع، ورغم سؤاله المتكرر لمحمد عن رأيه بما حدث وهل أزعجه الأمر أم لا، كان جواب محمد دائماً أن الأمر عادي ولم يزعجه، بل يسعده أن يساعد دلع في بحثها، فاضطر أيمن في نهاية المطاف إلى الاكتفاء بذلك، وكف عن السؤال.

كعادته، وقف محمد يبيع الدخان بجانب المقهى، لم يكن يفكر سوى باقتراب موعد أذان المغرب حتى يذهب إلى البيت. كان يومه متعباً جداً، وبينما هو كذلك تقدم منه شاب وطلب منه علبة دخان، فأعطاه محمد ما طلبه، ناوله الشاب النقود وانصرف. أودع النقود في جيبه، ثم استدار لإحضار الصندوق ولجمع بضاعته، وإذ بدلع تقف خلفه! ارتبك ولم يعرف ماذا يفعل، تقدمت خطوة نحوه وقالت:

- «مساء الخير محمد».

- «مساء النور، أهلاً دلع»، قال محمد متلعثماً.

ابتسمت دلع قائلة:

- «من أخبرك باسمي؟ أكيد أيمن، من منى!»، هز محمد رأسه موافقاً وقال:

- «نعم، منه».

- «توقعت ذلك، أنا اعتذر منك لحضوري فجأة. كنت في مقهى الانترنت، ورغبت في الحديث معك قبل ذهابي إلى المنزل».

استغرب محمد كيف أنه لم ينتبه لها عندما دخلت المقهى، وسرعان ما تذكر ازدحام الناس في الساعات القليلة الماضية.

تابعت دلع:

- «وددت أن أتفق معك على موعد مناسب للحديث عن بحثي».

قال محمد كمن تذكر فجأة، محاولاً إظهار اهتمامه بالموضوع:

- «آه، نعم البحث، الوقت الذي ترينه مناسباً، لا عليك، فأنا مستعد في أي وقت».

قالت دلع باندهاش:

- «حقاً، ألن تتعطل عن عملك؟»

- «لا..لا لن يؤثر ذلك علي، يمكنني العمل لاحقاً، أمي تقول دائماً: كل

شيء ينتهي في هذه الدنيا إلا العمل»، قال وهو يرسم ابتسامةً باهتةً على شفتيه.

ابتسمت دلع وقالت بامتنان:

- «أشكرك محمد، لا أدري كيف أرد لك هذا المعروف».

نظر إليها محمد وهمّ بالرد على كلامها، غير أنها تابعت قائلة:

- «تكلمت مع منى، وقالت إن والدتها لم تمانع في أن نذهب إلى منزلهم لنجلس هناك».

- «أكيد بلا شك،لا مانع لدي»، أردف محمد.

- «حسناً إذاً، تأخر الوقت الآن، سأذهب إلى المنزل»، قالت ثم شكرته واستأذنته بالذهاب.

ظل محمد يتابعها بعينيه حتى اختفت عند نهاية الشارع. كان فرحاً، إذ لم يكن يتمنى سوى أن يكلمها لدقائق وجهاً لوجه، وها هو سيجلس معها ويكلمها وتكلمه. سيرى ملامح وجهها وسيسمعها وهي تتحدث إليه، لم يفكر كثيراً في البحث بقدر ما فكر في لحظة جلوسه معها. جمع بضاعته، عاد إلى المنزل والبسمة تعلو وجهه.

مرّ يومان ومحمد ينتظر، لم ير خلالهما أيمن، وعندما سأل أصدقاءه عنه قالوا إنهم لم يروه أيضاً. في اليوم الثالث، قبيل الظهيرة بقليل، جاءه أيمن على عجل، ابتسم محمد وأراد أن يسأله عن سبب غيابه، بادره أيمن بالحديث قائلاً:

- «بدون أسئلة، هيا، لملم أغراضك وتعال معي»!

- «لكن.. »، قاطعه محمد:

- «ماذا قلت لك !». نفّذ محمد ما طلبه أيمن دون أسئلة، وكلما حاول فتح فمه ليسأل كان أيمن يضع سبابته على فمه قائلاً له:

- «هشش، هيا امش».

التزم محمد الصمت طوال الطريق، ومع أنه علم أثناء ذلك أنهما ذاهبان إلى منزل أيمن، لم يستطع تخمين سبب تصرفات صديقه الغريبة، فيما كان أيمن يمثل دوره بإتقان. كان عاقداً حاجبيه موحياً لمحمد أن الموضوع على درجة كبيرة من الأهمية، مختلساً النظر إلى ملامح محمد الملبدة بالقلق، وهو يرسم على شفتيه ابتسامةً خبيثةً، لأنه نفذ ما يريده.

وصل الصديقان إلى منزل أيمن، فتح أيمن الباب لمحمد، فقال الأخير باستغراب شديد:

- «ألن تقول لي ما الموضوع؟!»

هزّ أيمن رأسه نافياً، ودفعه إلى الداخل قائلاً:

- «ادخل وستعرف، لن أقول لك الآن».

دخل محمد إلى الصالة، كانت دلع هناك، تجلس مع منى ووالدتها، صافحهن محمد على التوالي ثم جلس، نظر إلى أيمن نظرة متوعّدة، فهم منها أيمن أنها قد تكون علقةً ساخنةً. وضع يديه في جيبيه ونظر

إلى سقف الغرفة، متظاهراً بتجاهل نظرات محمد، وهو على وشك الانفجار ضحكاً.

تناولوا طعام الغداء على الفور، وعندما قامت الفتاتان بمساعدة أم أيمن في نقل الأطباق والأواني، جذب محمد يد أيمن وهمس له بغضب:

- «لماذا لم تخبرني أننا سنلتقي اليوم؟ لماذا أخفيت عني الأمر؟»، أجابه أيمن باسماً:

- «طوال الأسبوعين الماضيين وأنت تحاول إظهار لا مبالاتك بالموضوع، خشيت أن تخيب ظني ولا تأتي إن دعوتك للقدوم، لكن هدوءك اليوم أكد لي أنك ستأتي، وأن كل ما فعلته لم يكن ضرورياً».

أشارت والدة أيمن لهما بيدها لينضما إليهن، قال أيمن مازحاً:

- «هيا، تعال نجلس قبل أن تقتلنا أمي»، سأله محمد:

- «انتظر، قبل أن نذهب أخبرني أين كنت في اليومين الماضيين؟»، قال أيمن:

- «كنت ومنى نقنع أبي بفكرة حضوركما أنت ودلع إلى المنزل، كان معترضاً على أن يتكرر الأمر أكثر من مرة واحدة. أمي ساعدتنا وأكدت له أن الأمر لن يتطلب أكثر من يوم واحد. هيا الآن، سأخبرك بالتفاصيل لاحقاً، أمي تراقبنا».

حزن محمد عندما علم أنه سيراها اليوم فقط. كان يعتقد أن بحثها سيحتاج إلى أن يتحادثا أكثر من مرة.

- «أتمنى أن نبدأ الآن، حتى لا أؤخر محمداً عن عمله، ولا أتأخر على أبي»، قالت دلع لوالدة أيمن عندما دخل محمد وأيمن الصالة، وافقتها السيدة:

- «معك حق يا عزيزتي»، ثم نهضت وهي تشير إلى أيمن بحركة من يدها وقالت:

- «لندع محمداً ودلع»، غمز أيمن لمحمد وخرج مع أخته ووالدته. حاول محمد أن يتمالك نفسه، إذ أحس بأن كل شيء يحدث بسرعة، ولم يعرف ماذا يفعل.

أخرجت دلع من حقيبتها دفتراً وقلماً، وعندما فتحت الصفحة الأولى استطاع محمد رؤية مجموعة من النقاط والأسئلة، بدا له أنها قامت بتحضيرها مسبقاً لتسهل عليها البحث، التفتت إلى محمد فوجدته ينظر إليها، ارتبك وحاول الهروب بالنظر إلى سقف الغرفة فبادرته بالقول:

- «لم تتح الفرصة لأسألك عن أحوالك وعملك هذه الأيام»، قال:

- «لا عليك، رأيتك تتحدثين مع منى، كل شيء بخير، شكراً لسؤالك.»

- «نعم صحيح»، قالت دلع ثم لبثت صامتة للحظات، فأحس محمد بارتباكها كأنها خجلة من طرح الأسئلة. بادر بالحديث محاولاً تسهيل الموضوع عليها:

- «إذن، هذه هي الأسئلة؟»



نظرت إليه دلع،وهزت رأسها قائلة:

- «آه، نعم، نعم هذه هي»، قال مشيعاً روح دعابة:

- «لنبدأ إذن، إلا إذا كنت تريدين البقاء صامتة».

- «لا، لا»، قالت مبتسمة ثم أردفت:

- «أخبرتني منى بعض المعلومات عنك، لذا سأسألك عما لم تخبرني به».

أومأ محمد برأسه موافقاً، فانطلقت الصبية أكثر في الحديث قائلة:

- «علمت أنك في مثل عمر أيمن، وأنك اضطررت إلى ترك المدرسة منذ ثلاث سنين، ما السبب الذي دفعك إلى ذلك؟»

- «نعم هذا صحيح، عمري الآن ست عشرة سنة، تركت المدرسة لأن والدي أصبح مقعداً بسبب إصابته بشظايا في ساقيه إثر قصف جوي، وكان يتوجب علي أن أعيل عائلتي».

توقف محمد ليسألها باستغراب بينما كانت تكتب ملاحظاتها:

- «هل يعقل أن منى لا تعرف سبب تركي للمدرسة؟»

قالت دلع:

- «أخبرتني باختصار، وأنا أردت أن أسمع منك التفاصيل، وهذا يفيدني في البحث».

تابع محمد دون إظهار أية ردة فعل على كلامها، وكان يتضايق كلما ذكرت كلمة بحث:

- «بدأت العمل بائعاً للدخان يومياً من السابعة أو الثامنة صباحاً حتى مغيب الشمس».

سألته:

- « ألا تجده عملاً شاقاً؟»

- «بالتأكيد، إنه عمل شاق، ولكن ما باليد حيلة، فهو مصدر رزقي ورزق عائلتي».

- «كم لديك من الإخوة والأخوات؟».

- «نحن خمسة، ثلاثة أولاد وبنتان».

كتبت دلع ملاحظة على هامش الورقة ثم عادت لتسأله:

- «أيكفي ما تجنيه من عملك لتعول إخوتك، وتدفع تكاليف علاج والدك؟».

أجاب محمد بتلقائية:

- «لا أعمل وحدي، الآن بدأت أمي ...»، صمت فجأة كأنه ندم على زلة لسان، حدّقت دلع في عينيه منتظرةً أن يكمل، تابع مخففاً من اندفاعه السابق:

- «أمي بدأت العمل منذ فترة، وقد تحسنت أوضاعنا عما كانت عليه، بالإضافة إلى أن صحة والدي في تحسن مستمر».

تريثت دلع في طرح الأسئلة، وأحست بضرورة الانتقال إلى سؤال آخر حتى لا يتضايق محمد، قالت:

- «أخبرتني منى عن حبك لكرة القدم، هل لديك هوايات أخرى، أم أنها هوايتك الوحيدة؟»

- «نعم، أحب كرة القدم كثيراً، وأحب القراءة والكتابة أكثر»، قالها بشغف لافت.

أُعجبت دلع بما سمعته، وعادت تكتب المزيد من الملاحظات، فاسترق محمد نظرة إلى الورقة، ووجد أنه لم يتبق لديها أية أسئلة، فتذكر على الفور كلام أيمن عن أنه لن يلتقي بها سوى هذه المرة، وكيف أنه تخيل مشهد لقائه بها عشرات المرات. أحس أنّ عليه أن يثير إعجابها بأي شيء، فقرر أن يخبرها عن أجمل ما قرأ، وأن يستخدم تعبيرات قوية لعله يلفت انتباهها ببلاغته وثقافته. أخرجته دلع من تأمله الصامت بسؤالها :

- «ماذا تحب أن تقرأ، أقصد أي نوع من الكتابات تستهويك؟»، قالتها محاولة إخفاء فضولها لمعرفته أكثر.

انتعش محمد لسؤالها، فانطلق يتحدث قائلاً:

- «أحب قراءة الشعر، مثل شعر محمود درويش، أما عن الروايات والقصص فأحب المغامرات وبالذات الرومانسية منها»، ثم صمت كمن سيقول شيئاً أكثر إثارة، فكّر سريعاً وسألها مباغتاً:

- «وأنت؟»، نظرت إليه دلع وقد ارتفع حاجباها تعجباً، «ما هي هواياتك؟».

صمتت دلع، لأن سؤاله فاجأها، ثم قالت بِرقّة:

- «أحب سماع الموسيقى».

سألها باهتمام:

- «الموسيقى؟»

- «نعم .. الموسيقى، ألا تحبها؟»

- «بلى، ولكن قليلاً»، قال بحماسة أقل، فسألته:

- «أي نوع تحب؟»

صمت للحظات ثم قال بإحساس من أوقع نفسه في مأزق:

- «ليس هناك نوع محدد، لكنني معتاد على سماع الأغاني التي يضعها صاحب مقهى الإنترنت، هناك أغان بلغات مختلفة غير العربية لا أفهمها، لذا أجد الموسيقى معقدة في بعض الأحيان».

ابتسمت دلع وقالت:

- «أمي كانت تقول لي دائماً إن الموسيقى لغة يحسها الجميع، وها أنا أفهم هذه الكلمات يوماً بعد يوم. كنت مثلك، عندما أستمع لأول لحن في أي مقطوعة موسيقية أغلق المذياع ولا أعيرها أي اهتمام، ومع الوقت بدأت أستمع لها شيئاً فشيئاً، واكتشفت كيف يمكن لمقطوعة موسيقية أن تغير فيك أشياء كثيرة».

سألها بانتباه:

- «كيف، لم أفهم؟»

- «لا يهم إن لم تفهم الموسيقى، المهم أن تحس بها».

- «أخبريني كيف أحسست ذلك، أقصد كيف وصلت لهذا المفهوم؟»

قالت دلع بعد أن صمتت لحظات:

- «الموسيقى تذكرني بأمي دائماً، توقظ في ذكريات جميلة، وتذكرني بالأيام الماضية التي أفتقدها بالفعل. أحس أحياناً أن الآلات الموسيقية تبكي وتفرح معي، وتذكرني بحلو ما عشته ومرّه، وكلما أحسست بضيق أستمع لها وأسترخي مع ألحانها، لأجد أنني نسيت كل حزني، إنه يتبدد تماماً».

نظرَت دلع إلى محمد وهو يستمع لها مبتسماً، قال:

- «أتعلمين أنك تقولين كلاماً أدبياً».

- «حقاً ..كيف؟»

أجابها بنبرة صادقة:

- «بوصفك لتأثير الموسيقى عليك».

- «آه، حقاً، أشكرك، لكنني لا أقرأ ولا أكتب كما تفعل أنت».

في تلك اللحظة، قفزت إلى ذهن محمد فكرة أغرته بأهميتها، قال:

- «ما رأيك أن نتبادل ما لدينا»، نظرت إليه دلع باستغراب، فمضى قائلاً يساوره قلق من رفضها:

- «نذهب للمكتبة، وأدلّك على أجمل الكتب، مقابل أن تقولي لي أي

المقطوعات الموسيقية جديرة بأن أستمع إليها».

ابتسمت دلع وقالت بعفوية:

- «إنها فكرة رائعة، موافقة».

فرح محمد لقبولها، وودّ لو أنه يكمل الحديث في الموضوع نفسه، غير أنها عادت تكتب ملاحظاتها، بعد أن أحست أنها اندفعت أكثر مما ينبغي. قال محمد بعد لحظات من الصمت وهو معنيّ بأن يخلق حديثاً:

- «أرى أنّ منى قالت لك معلومات لا بأس بها. معظم الأسئلة التي، طرحتها لديك أجوبة عليها».

قالت دلع:

- «صحيح، في الحقيقة لم أرد أن أُعطلك عن عملك، لذا سألتها مسبقاً فأجابت عما تعرفه».

ابتسم محمد بمسحة من الحزن، وقد أحس أنها انتهت وستغلق دفترها استعداداً للخروج، لكنها خالفت افتراضاته وتخميناته بسؤالها:

- «لماذا اخترت مهنة بيع الدخان عن سواها، أما كان يمكن أن تعمل شيئاً آخر؟»

فوجىء محمد بسؤالها. أجابها قائلاً:

- «لم تكن هناك خيارات متاحة، أصعب شيء هذه الأيام إيجاد عمل، أما مهنة بيع الدخان فقد نصحني بعض أصدقائي بها لأنها مربحة».

- «لكنها خطيرة»، قاطعته دلع باندفاع، فقال بعفوية:

- «من أية ناحية تقصدين؟»

- «أنت تبيع شيئاً يضرّ الناس ولا يفيدهم».

صمت للحظات ثم قال:

- «جاءني ذات مرة عدد من الأولاد من مختلف الأعمار، يريدون شراء سجائر، ولم أتردد عن بيعها لهم. بعد فترة، عرفت أن أحدهم وهو في العاشرة من عمره، قبض عليه مدير مدرسته وهو يدخن، ولما فتش جيوبه وجد معه علبة دخان. أنّبني ضميري لأنني كنت أبيعه السجائر، ولم يخطر ببالي أنه يشتريها لنفسه، اعتقدت أنها لوالده أو لشخص راشد. ومنذ ذلك اليوم عاهدت نفسي ألا أبيعها لأي طفل، وأتمنى حقاً أن أجد عملاً أفضل».

كانت دلع تضع يدها على خدها وهي تستمع إليه مبتسمة، فتساءل قائلاً:

- «ماذا هناك»، أجابته:

- «سعيدة لأنك تفكر بهذه الطريقة».

- «لا يزال هناك أمل»، قال محمد، فبادرته دلع بإشراق:

- «إذن لماذا لا تكمل دراستك؟».

ابتسم محمد من جديد بشيء من التوتر:

- «أتمنى ذلك، ولكن لا يوجد لدي وقت، والأسوأ أنه لا يوجد لدينا نظام انتساب في المدرسة».

- «إذن أنت تريد أن تكمل دراستك».

- «بلا شك، أنا أحب المدرسة. كنت مجتهداً، ولكن كما ترين الحال بائس».

دوّنت دلع ملاحظات إضافية، وإذا بأيمن يدخل ويفزعهما بصوته الحاد قائلاً:

- «فاصل ونواصل، هيا الآن لنشرب الشاي ونأكل الكيك».

دخلت منى، وجلس الأربعة وراحوا يتجاذبون أطراف الحديث. مرّ الوقت سريعاً، وتمنى محمد أن يظل جالساً معها، غير أن الليل جاء، وانتهى اللقاء.

عاش محمد في الأيام التالية أجمل أيام حياته. التقى بدلع كثيراً بحضور منى وأيمن، في المكتبة العامة حيناً، وفي الحديقة في أحيان أخرى، وتحادث محمد ودلع كثيراً. استطاع الاثنان التعرف على بعضهما بعضاً على نحو أفضل، أخبرته أن والديها مطلقان، حدثته عن حياتها في غزة، وكيف أنها تذهب لمقهى الإنترنت لمحادثة والدتها.

نسي محمد البحث، ولم تعد دلع تتكلم عنه، مع أنه كان في بعض الأحيان يخشى على الصداقة التي نشأت بينهما، يخشى أن تكون صداقة مؤقتة لأجل مشروعها فقط. كان يطرد هذه الأفكار والهواجس، لأنه كان يمضي وقتاً جميلاً مع دلع، وكان سعيداً، سعيداً جداً.



٧

أسند محمد ظهره إلى الحائط المجاور لموقف الحافلة، وضع يديه وراء ظهره وحلّق بناظريه إلى السماء، صفّر لحناً لمقدمة موسيقية لأغنية، ثم بدأ يدندن كلماتها عندما تذكر أنها لفيروز. هذه هي حال محمد هذه الأيام، صار مهووساً بسماع الموسيقى والأغاني، يستمع بشغف لكل ما تنصحه دلع بالاستماع إليه.

كان كل شيء اليوم يسير على أحسن ما يرام، كان الجو جميلاً، ومحمد يقف مستمتعاً بنسمات الهواء الباردة. بعد قليل، ستأتي دلع ومنى بصحبة أيمن ليذهبوا جميعاً إلى المكتبة العامة. أخبرتهم السيدة فاطمة الأسبوع الماضي أنه سيتم اليوم عقد حلقة نقاش حول إحدى الروايات التي انتهوا من قراءتها. نظر إلى جمال الغيوم في السماء وبدأ يرسم بخياله أشكالاً منها، توقف لبرهة، ثم أخرج من جيب معطفه ديوان شعر، وبداخله ورقة عليها بضع كلمات، نظر حوله، ألفى المقعد المخصص لركاب الحافلة فارغاً فجلس عليه، وعاد ينظر إلى السماء.

بعد دقائق، أحس برغبة شديدة في الكتابة، أخرج قلم الرصاص وكتب.

«لا أعرف لماذا لا أحس السماء حزينةً اليوم، ليس اليوم فقط، بل يوم أمس وما قبل الأمس أيضاً»، توقف لبرهة ثم أكمل، «ها نحن الآن على أبواب نيسان، مرّ شهران ونصف تقريباً على صداقتنا، يؤلمني أن أقول صداقة، لكنني لا أريد أن أطلب أكثر من ذلك فأخسرها».

أغلق غلاف الديوان بعنف على الورقة، وضع يده على خده وبدأ يهز قدمه اليمنى بتوتر، نظر إلى الساحة أمامه وقد كسا وجهه الحزن، فتح الديوان بهدوء، وأخرج الورقة، ثم أمسك القلم بقوة وكتب هذه المرة وعلامات الغضب ترتسم على وجهه «المنظر نفسه، المقهى كما هو، الباعة المتجولون أنفسهم، ما عدا ثلاثة جدداً، أما القدامى فقد شابوا أكثر وبرزت تجاعيد وجوههم بوضوح».

«كل شيء يمشي بدقة وانتظام ، ركاب الحافلة وموعد قدومها، الأحداث نفسها.

ليتني كنت بائع ورد، كنت سأفرح حين أبيع فتاة أو شاباً وردة ترسم البسمة على شفتيها وشفتيه بدلاً من بيعهما ما يقتلهما».

نظر إلى علب الدخان المرصوصة إلى جانبه، ثم رفع عينيه مجدداً، لينظر إلى المكان الذي مكث فيه ثلاث سنين، وعاد يكتب بعينين دامعتين، وهو يُردد ما يكتبه «لماذا لم أنتبه لكل هذه الأشياء من قبل، ولماذا أُحسّ بها الآن كأنها وحش كاسر يلاحقني ليل نهار؟»

- «لأنك ولأول مرة تحس بذلك»، قال صوت غريب، رفع محمد رأسه باحثاً عن مصدر الصوت، فإذا بشيخ تجاوز الستين، يقف بالقرب منه، ويرتدي طقماً قماشه مكرمش مهترئ، ويضع على كتفيه معطفاً ثقيلاً تفوح منه رائحة الرطوبة.

صمت محمد للحظات ثم قال:

- «أتكلمني يا سيدي؟»

أجاب الشيخ متكئاً بيده اليمنى على عكازه:

- «نعم، أكلمك يا بني»، ثم باغته بالسؤال:

- «أأنت كاتب؟!»

تذكّر محمد الورقة التي أمامه، أغلق الكتاب عليها، وأعاده إلى جيب معطفه، ثم أجاب سائله بلهجة جافة:

- «لا، لست كاتباً».

تضايق محمد من هذا الشيخ، «يا له من شيخ متطفل، يعلموننا عدم التدخل في شؤون الكبار، وها هم يدسون أنوفهم في كل شيء، كيف له أن يقرأ ما كتبت، ويتكلم معي كأنه يعرفني؟»، قال محدثاً نفسه.

- «لديك أسلوب مميز في الكتابة»، قال الشيخ ومحمد يهم بالوقوف، فعاد وجلس وهو مغتاظ منه، فقد بات متأكداً الآن من وجوده بالقرب منه، طوال الفترة التي كان سارحاً فيها يكتب ما كتب من كلمات.

- «حقاً..كيف علمت؟» قال محمد مخففاً من حدة لهجته، فأجابه الشيخ وهو ينظر إلى المارة:

- «من الكلمات القليلة التي كتبتها»، صمت ثم أردف قائلاً:

- «أذكر أن معلم اللغة العربية أخبرني عندما كنت صغيراً أن كل واحد فينا يملك موهبةً خفية، لكنه يحتاج إلى من يساعده على تنميتها وتطويرها».

عاد لصمته ثم تابع بمودة أكثر:

- «كتابتك لمذكراتك أو مشاعرك أو أي شيء يخطر ببالك، ما هي إلا خطوة أولى، ستدفعك فيما بعد إلى الوصول للأفضل».

في تلك اللحظة هبت نسمة باردة، اقشعر جسد محمد، نظر الشيخ إليه وسأله:

- «أتلك البضاعة تخصك؟».

وأشار بعكازه إلى علب الدخان، قال محمد وهو مندهش من كلام الشيخ:

- «آه، تلك، نعم، إنها لي يا سيدي».

قال بعد أن أدار وجهه ونظر ناحية بضاعته:

- «إذن فأنت تبيع الدخان؟»

- «نعم».

تنهد الشيخ:

- «آآآآآآه.. لم أتوقع أن تكون بائع دخان، لماذا لم تفكر في إيجاد عمل آخر غيره؟». غضب محمد من سؤال الشيخ، وأحس بأنه يتدخل في شؤونه الخاصة، فقرر الاستئذان منه والذهاب إلى عمله، غير أن الرجل الشيخ أوقفه وخاطبه وجهاً لوجه قائلاً:

- «أترى الشاب صاحب المقهى، أعتقد أن اسمه نادر».؟

نظر محمد باتجاه المقهى وهزّ رأسه قائلاً:

- «نعم نادر، أعرفه».

- «استشهد والده، برصاصة من سلاح دورية إسرائيلية، وهو يعمل في حقله، وبالرغم من أنه كان صغيراً، استطاع العمل والدراسة معاً. في البداية لم يتفهم الأمر وأحسّ بانتهاء كل شيء حوله، ثم استطاع بمساعدة والدته، النجاح في حياته، وها هو اليوم كما تراه أصبح صاحب مقهى للإنترنت».

صمت الشيخ عندما لاحظ ارتباك محمد، ثم أردف:

- «ما الذي جعلك تكتب عن هؤلاء الباعة المتجولين الآن، وما الذي جعلك تلاحظ وجودهم رغم أنهم قد لا يعلمون بوجودك؟».

فتح محمد فمه وهمّ أن يجيب بأي شيء، فأجاب الشيخ قائلاً:

- «لأنك تريد تغيير حياتك للأفضل، لا تريد أن تقضي حياتك عند هذه الزاوية نفسها، لتمر الأعوام تلو الأعوام، وترى الشيب يكسو رأسك، والتجاعيد تغزو وجهك مثلهم».

قال محمد بهدوء، بعد إدراكه أن الشيخ قال ما في قلبه، وما عجز عن البوح به حتى لورقة:

- «نعم، كلامك صحيح».

ابتسم الشيخ لتجاوب محمد معه بعد أن كان متضايقاً منه، قال محاولاً تبديد حزنه:

- «واظب على القراءة، والكتابة أيضاً، واكتب ما تشاء، ولا تهتم للأخطاء، فمع الوقت ستصبح أفضل».

وصلت حافلة الساعة الثانية عشرة والنصف، نزل الركاب وازدحم المكان، توكأ الشيخ على عكازه وقال:

- «ها هي حافلتي».

ثم نظر إلى محمد وأضاف:

- «سعيد بمقابلتك، واعذرني على تطفلي».

مشى خطوة ثم أدار وجهه وقال:

- «ها.. ولا تتوقف عن الدندنة، فوجهك أجمل عندما تبتسم. سلام».

مضى الشيخ ورفع يده ملوحاً لمحمد.

نهض محمد من مكانه كمن يستيقظ فجأة من غيبوبة، صرخ بأعلى صوته:

- «يا سيدي لم تذكر لي اسمك، انتظر، انتظر».

لم يستطع الشيخ سماع صوت محمد، ركب الحافلة وجلس في المقعد

المجاور للنافذة، وعاد يلوح لمحمد مبتسماً ومحمد يصرخ:

- «أرجوك قل لي ما اسمك!».

مضت الحافلة وانفضّ الزحام، ومحمد واقف في منتصف الشارع، وهو يردد بصوت خافت:

- «اسمك، اسمك فقط».

- «ما هذا.. ألا ترى؟!»، هتف سائق التاكسي غاضباً من محمد، لوقوفه في منتصف الشارع وتعطيله حركة السير. أفاق محمد من صدمته، وعاد إلى المقعد كالمنوم مغناطيسياً. جلس لدقائق ثم قام وجمع بضاعته ومشى .. مشى دون أن يدري إلى أين يذهب، ظل يمشي لساعات طويلة إلى أن وجد نفسه أمام البحر، كانت الشمس على وشك المغيب، ورغم برودة الجو أحس برغبة قوية في مشاهدة غروب الشمس، وضع صندوقه أرضاً وجلس على الرمال.

كانت الشمس تغطس في البحر مرسلةً أشعةً ذهبيةً، وقد بدأ الهواء يزداد برودة شيئاً فشيئاً. شدّ محمد معطفه على صدره واستمر في مراقبة موج البحر، الذي كان لونه يتغير مع هبوط الشمس البطيء داخل البحر. أمسك حفنة من الرمل وقبض عليها بيده، ثم بدأ يُفلتها من قبضته على مهل كنزول الرمل من الساعة الرملية.

في هذه اللحظات مرّ أمامه شريط حياته، فكّر في نصائح الشيخ، وأحس بثورة في أعماقه، «إنه على حق»، فكّر محادثاً نفسه، «أنا خائف من التغيير، لماذا لم أبحث عن عمل آخر؟ كانت لديّ الفرصة. هل اخترت الأسهل؟»

هبّت ريح قوية، فأغمض عينيه وشعر باهتزاز جسده مع كل نسمة «نعم، أنا لا أريد أن أصبح مثلهم، أن أنظر كل يوم في المرآة، لأرى الوجه نفسه الذي أراه منذ سنين»، فتح عينيه بغضب، وأفرغ يده من الرمال المتبقية فيها، وقرر أن ينهض وينسى كل ما حدث معه اليوم، ثم تذكر دلع فجأة، «هل دلع هي السبب؟ لماذا أفكر بالتغيير الآن؟ كنت دائماً أتراجع عن مثل هذا القرار! لماذا أريده الآن»؟

تذكر كلام الشيخ عن الإحساس الغريب الذي يحس به الآن، لأول مرة، «كيف عرف الشيخ أني تغيرت؟ لوجود هذا الإحساس؟»، صمت للحظات ثم سرح في مد البحر وجزره، وهو يسترجع كلام الشيخ معه، «ربما أراد الكلام معي فقط، من المؤكد أنه يشعر بالوحدة، ويحتاج إلى من يتكلم معه، نعم، هو لا يعرف ظروفي، وما الذي دفعني إلى العمل؟»

بدأ النهار يتلاشى، وكادت الشمس أن تختفي في البحر. تنهد وظل يراقب الشمس حتى آخر خيط لها، ثم حمل صندوقه وعاد إلى المنزل.

في صباح اليوم التالي، أفاق وهو يشكو من صداع مؤلم، فقد أمضى ليلة صعبة لم يذق فيها طعم النوم، قضاها وهو يقاتل تزاحم أفكاره، بين كلام الشيخ معه وكل الأشياء التي حدثت معه مؤخراً.

ورغم إحساسه بالإرهاق والوهن، إلا أنه ارتدى ملابسه وخرج مبكراً، لكن.. دون صندوقه الخشبي.



٨

جلس الأربعة على أرض الحديقة المكسوة بحشيش أخضر، كانت منى ودلع تجلسان جانباً، يقابلهما محمد وأيمن.

– «أمتأكد أنك لم تره من قبل؟»، همس أيمن، فأجابه محمد:

– «إنها المرة الأولى التي أراه فيها، سألت نادر عنه ووصفته له وصفاً دقيقاً، فقال إنه لم يره في حياته».

صمت محمد وأيمن للحظات، واسترسلا في النظر إلى الأولاد وهم يلعبون أمامهما، إلى أن قال أيمن:

– «لا أدري لماذا يشغل هذا الشيخ بالك، ربما كان مجرد عابر سبيل، انس موضوعه ولا تجعله شغلك الشاغل».

هزّ محمد رأسه بحيرة، ولم يعرف بماذا يجيب، فقد قضى الشهرين الأخيرين وهو ينتظر هذا الشيخ عند موقف الحافلة، على أمل أن يراه مجدداً، ليس لسؤاله عن اسمه فقط، بل عن كلامه الذي يستغرب به محمد حتى اللحظة، وكيف دفعه إلى اتخاذ قرار تردد كثيراً في تنفيذه.

- «ما يحيرني فعلاً هو كلامه عن نادر، وكيف قال أشياء كنت أفكر فيها فعلاً»، ضحك أيمن وقال:

- « بالنسبة لنادر، أعتقد أنه سمع عن قصته من رجل شيخ مثله».

ضحك مرة أخرى ثم أردف:

- «أما بالنسبة لك، فلأنك يا ذكي كنت تكتب كما أخبرتني، دون أن تنتبه لوجوده بجانبك، استطاع بكل سهولة تحليل شخصيتك».

صمت للحظة ثم سأل:

- «ألم تقل إنه شيخٌ كبير؟».

هزّ محمد رأسه موافقاً، فقال أيمن:

- «إذن، الجواب واضح، كنت دائماً أستغرب كلام أبي وتفسيراته لأشياء تحدث معي، وعندما أسأله عن مصدر هذا الكلام، يخبرني أنه يقتبسه عن جدي رحمه الله، أو أنه مر بما مررت به».

اقترب محمد من أيمن وهمس قائلاً:

- «إذن، أنت تقول أن ما حدث معي أمر طبيعي، لأنه شيخٌ ولديه خبرة وحكمة ..إلخ؟».

همّ أيمن بالكلام لتأكيد ما يقصده وإذا بمنى تقول:

- «هل نقضي باقي الوقت هكذا، أنتما تتهامسان وتضحكان معاً وحدكما؟»

أجاب أيمن مسرعاً:

- «يا سلام، كأنكما لا تتهامسان ولا تضحكان».

ضحكت الفتاتان وقالت دلع:

- «نحن نتكلم في أمور تخص الفتيات فقط».

قال محمد ضاحكاً:

- «نعم هذا صحيح، ونحن كذلك، نتكلم في أمور تخص الفتيان فقط».

ضحك الأربعة. قالت دلع بخجل:

- «كيف هو عملك الجديد يا محمد؟».

ابتهج محمد لسؤالها وأجاب:

- «رائع جداً، لا أعرف كيف أصف فرحتي به».

قال أيمن بتهكم ممازحاً صديقه:

- «من كان يصدق، أصبح لزاماً علينا اليوم أن نطلب الإذن من الأستاذ محمد لنستعير كتاباً».

- «نعم، وكلما دخلنا يظل يقول: هشش، صوتكم ، تكلموا خارجاً»، قالت منى مقلدة محمد، وضحكت هي وأيمن، قالت دلع:

- «بلا مزاح، أخبِرنا يا محمد كيف هي الحياة في المكتبة، وهل استطعت التأقلم بسهولة؟»

قال محمد بعد لحظة صمت، استغربها أصدقاؤه:

- «جميل أن تتاح لنا فرصة عمل، عمل نحبه، بعد أن أرغمتنا الظروف على عمل لا نحبه»، صمت ثم أردف «أنا سعيد جداً بالعمل الجديد».

توقف عن الكلام، وعاد بذاكرته إلى اليوم الذي التقى فيه الشيخ،

كيف فكر طويلاً بكلامه، وكيف ذهب في صباح اليوم التالي إلى السيدة فاطمة، وسألها إذا ما كان عرض العمل لا يزال قائماً، وها هو قد بدأ العمل مساعداً لها في المكتبة. لم يجد صعوبة في التأقلم أو تعلم الكثير عن عمله الجديد، فزياراته الدائمة للمكتبة، أتاحت له الفرصة لمعرفة الكثير عنها وعما فيها من كتب.

استغرب أيمن والفتاتان صمتَ محمد، فبادرت منى قائلة:

- «ماذا، ألن نلعب؟»

بعد نقاش طويل، اتفقوا على أن يلعبوا لعبة الأغاني، على طريقة المبارزات الشعرية. انقسموا الى فريقين، الأول يتشكل من منى ودلع، والثاني يتشكل من محمد وأيمن.

- «تملي معاك ولو حتى بعيد عني في قلبي هواك.. تملي وحشني لو حتى بكون وياك»، بدأت منى ودلع فردّ محمد وأيمن:

- «كتبنا وما كتبنا ويا خسارة ما كتبنا.. كتبنا مية مكتوب ولهلا ما جاوبنا».

قالت منى باندفاع دون أن تنتظر دلع:

- «أحن إلى خبز أمي وقهوة أمي ولمسة أمي.. وتكبر في الطفولة يوما على ..»، وخزها أيمن في يدها. استفزها ذلك وأرادت الشجار معه، لكنه أشار إلى دلع فنظرت إليها، كانت صامتةً وعيناها مسمرتان في الأرض.

- «أعتذر ..لم أقصد مضايقتك»، قالت منى نادمة.

- «لا عليك، كل ما هنالك أني اشتقت إليها كثيراً، أتمنى أن تأتي الإجازة قريباً»، قالت دلع.

تنبه محمد لما قالته فتساءل باهتمام حار:

- «لماذا؟».

قالت دلع:

- «طلبت من أبي أن يسمح لي بالذهاب عند أمي».

تسمّر محمد في مكانه وأحس ببرودة شديدة في جسده، كانت دلع قد أخبرت منى مسبقاً عن رغبتها في السفر، وكانت خائفة من رفض والدها لطلبها.

مرّ الوقت سريعاً وعاد الأولاد إلى منازلهم، وبقي محمد يفكر في كلام دلع عن رغبتها في السفر لرؤية والدتها.

بعد أسبوعين، علم محمد من أيمن أن والد دلع وافق على سفرها. ستسافر في أول الشهر. اضطرب محمد لسماعه هذا الخبر، وتمنى لو أن الإسرائيليين يعرقلون سفرها لسبب أو لآخر! ولا يسمحون لها بالخروج، وهم كثيراً ما يفعلون ذلك!

نظر إلى ساعته، إنها السابعة والربع. نظر إلى شرفة منزلها فوجدها مغلقة، تفحص المكان بنظرة سريعة. مشى في الطريق، وجلس على عتبة المنزل المقابل لمنزلها، أسند ظهره إلى الحائط، أخرج دفتره ونظر إلى السماء. كانت سماء هذا الصباح زرقاء صافية، وزقزقة العصافير تملأ الفضاء. تأملَ حديقة الأزهار المجاورة لبرهة، ثم فتح

دفتره وكتب.

..«رائحة الياسمين تملأ المكان، وتلفح وجهي مع كل نسمة منعشة لهذا الصباح الجميل الحزين من شهر حزيران».

توقف عن الكتابة ونظر إلى السماء، ثم عاد يكتب، «سأفتقد المطر منذ الآن، لأنه يذكرني بأول لقاء لنا، أتذكرين؟ أو ربما لا تذكرين، لعلك لم تنتبهي لي، فقد كان الزحام شديداً جداً».

«مرت الأيام، وازداد أملي بلقائك والحديث معك، إلى أن أصبحنا أصدقاء، أصبحت أستيقظ من نومي كل يوم وأنا أسمع صوتاً بداخلي يقول: قم فهناك ما ينتظرك، بعد أن كانت كل أيامي يشبه بعضها بعضاً، لا يختلف يوم عن يوم..أما الآن فقد أصبح لكل شيء طعم آخر.. شكراً على إدخال الموسيقى إلى حياتي».

شرد لبرهة، ومرت أمامه كل الأيام التي قضاها مع دلع وأيمن ومنى، ثم كتب:

«لن أنسى اللحظات التي جلسنا فيها معاً، ضحكنا ولعبنا وغنينا معاً، علّمني حضورك معنى الأمل، ونما وكبر عندي كهذه الوردة التي بين يديّ الآن، وستكون بين يديك بعد قليل».

كان ينوي إهداءها وردة جورية قطفها من حديقة الجيران.

«أشكرك..أشكرك على كل شيء، وأتمنى أن نبقى أصدقاء».

أراد أن يوقع اسمه ويطوي الورقة. غير أنه تذكر وكتب: «ذهبت إلى

المدرسة، وسجّلت اسمي لأكمل تعليمي، واتفقت مع السيدة فاطمة على العمل بعد الدوام المدرسي.. سامحيني لأنني أكتب لك عن هذا الآن، كنت أنوي أن أخبرك به مسبقاً، يوم كنا في الحديقة، لكن خبر سفرك ضايقني جداً».

توقف للحظات، ثم حزم أمره وكتب بسرعة: «أحبك».

لكنه ما لبث أن شطبها.

«ما هذا الجنون الآن!»، سأل نفسه، و«ماذا إذا كانت تعتبرني صديقاً فقط؟».

أحسّ بتوتر وحيرة، ولم يعد يدري أيكتبها أم لا يكتبها!

وبينما هو كذلك إذا بأيمن ومنى يظهران من المنعطف المجاور، أغلق دفتره ووضعه جانباً وانشغل بالحديث معهما.

بعد قليل، وصلت سيارة الأجرة التي ستقلّ دلع ووالدها، أنزل الرجل الحقائب ووضعها في صندوق السيارة. نزلت دلع ووالدها، هرعت فرحة لرؤية أصدقائها الثلاثة، ووقفت لتتحدث معهم قليلاً، وإذ بوالدها يناديها، احتضنت منى بحرارة بللتها الدموع، ولم تكف منى عن توصيتها بأن يستمر التواصل بينهما:

– «لا تقطعي أخبارك عنا».

صافحت أيمن مودّعة، وعندما همّت بمصافحة محمد أعطاها الورقة التي كتبها، وكان انتزعها من دفتره بسرعة، ولم يسعفه الوقت ليكتب

ما أراد.. أعطاها الوردة الجورية الخمرية اللون، وقال:

- «كنت أتمنى أن أُحضر لك شيئاً آخر، لكني أعرف كم تحبين الورد».

ابتسمت دلع وقالت:

- «أروع الأشياء هي أبسطها، وأنت قلت إنني أحب الورد».

سكتت واحمرت وجنتاها ثم قالت:

- «أشكرك محمد».

- «لا داعي للشكر، فأنا..».

- «هيا دلع .. لقد تأخرنا، لا نريد أن يُغلق المعبر»، هتف والدها بنبرة حازمة، ارتبكت دلع وصافحت محمداً، فأحس ببرودة راحة يدها، وأحست برجفة في يده، فنظرت نحوه، ولم تقل شيئاً.

- «ألقاكم على خير.. سأشتاق لكم جميعا»، قالت ثم دخلت السيارة.. فتحت الرسالة على الفور، قرأتها ثم طوتها. أدار السائق محرك السيارة، فأدارت وجهها وقد نزلت دمعتان من عينيها، لوّحت لأصدقائها بحزن، نظرت إلى محمد، وابتسمت له.

بقي محمد واقفاً يراقب السيارة، إلى أن غابت عن الأنظار.

«إليك صديقتي..

أكتب إليك الآن، وأنا أجلس مع والدتي في مقهى صغير على جبل قاسيون.. فعلى الرغم من الجو البارد هنا، إلا أن المشهد جميل جداً، ليتكم معي جميعاً. لا أجد كلاماً أصف به اشتياقي لكم، فأنا أتذكركم كل يوم.



أكتب إليك لأخبرك أنني سأعود مع بداية العام الدراسي. أقنعت أمي بحضوري لزيارتها كل صيف، وكذلك في إجازة نصف العام، وقد وافقت على ذلك.

أريد منك أن تشكري محمداً على رسالته. أسعدني جداً خبر رجوعه إلى المدرسة، وأريد أن تخبريه أني عائدة قريباً و..».

ترددت في إكمال ما تريد قوله، وتمنت لو أن محمداً يملك إيميلاً إلكترونياً لتراسله، ثم تابعت: «مشتاقة لكم كثيراً وأتمنى أن نلتقي قريباً..

أحبكم

دلع..».

«أكتب إليك الآن، وأنا أعرف أنك ربما ستمزقين رسالتي، وربما سترمينها في وجهي، وربما ستقرئينها أيضاً. مذ رأيتك في ذاك اليوم الماطر، لم أستطع نسيان جديلتك المرخاة على كتفك، أو جمال ابتسامتك الخجول يوم مررت بجانبي، تمنيت لو اصطدمت بي صدفة، ووقعت حقيبتك منك، أو لو عاكسك أحد الصبية ورأيته، فأتشاجر معه لأجلك.

لا أدري إن كنت ترينني كما أراك، أو تفكرين بي لحظة في اليوم، لأنني أفكر فيك طوال اليوم. كل ما أتمناه هو أن أعرف اسمك، اسمك فقط».



مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education

ISBN 978-9950-326-50-7